شخصيات مجمعية

أقام المجمع حفل استقبال لعضوه الجديد من تونس الأستاذ الشاذلى القليبى ، الذى خلف المغفور له الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب . وقد أقيم الحفل فى الساعة الخامسة من مساء الثلاثاء ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٣٩٠ هـ الموافق ٢٢ من فبراير سنة ١٩٧١ م . وفيما يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى استقبال الأستاذ :

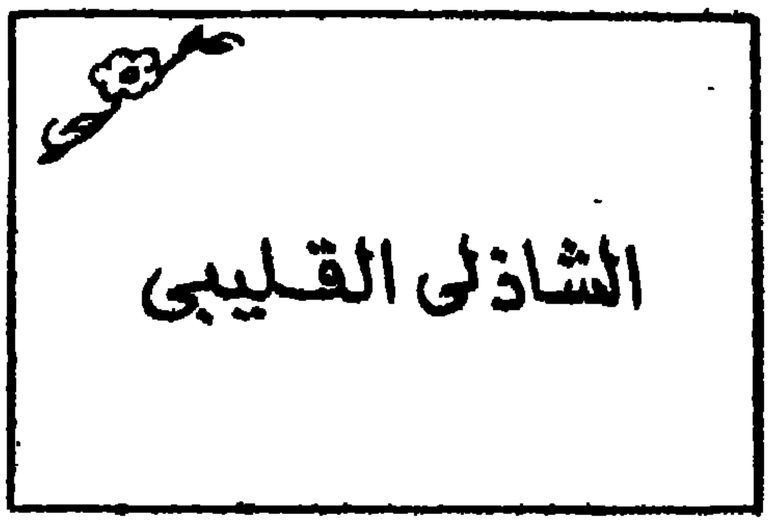

حضرات الزملاء :

سيداتى ، سادتى :

إنه ليسر المؤتمر أعظم السرور أن يستقبل الليلة زميلا كبيرا وعالما جليلا ، هو السيد الأستاذ الشاذلى القليبى الذى اختير عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة من تونس الشقيق ، خلفا للعالم الكبير المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب . والمؤتمر إذ يهنىء الزميل الجديد بما نال من ثقة وتقدير ، ليسعده كل السعادة أن يرى كفاية عربية جديدة تضاف إلى كفاياته ، ونشاطا علميا جديدا يلتقى بنشاطه .

كذلك كان تونس الشقيق وسيظل دائما يزودنا بذوى الثقافات العالية ، والكفايات الممتازة ليشاركونا فى تأدية أهم رسالة تتصل بقوميتنا ونهضتنا ، وهى خدمة اللغة العربية .

ولعل من محاسن المصادفات أن يكون استقبال الزميل بعد عودته من الحج ، وأن يجىء إلينا بعد حج مبرور ، وسعى مشكور ، وذنب مغفور ، إن شاء الله :

وما من شك فى أن وفاة العالم الكبير المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، قد تركت بيننا فراغا علميا واسعا ، ولكنا على يقين بأن الزميل الجديد سيكون خير خلف لخير سلف ، وأنه سيملأ هذا الفراغ بما عرف عنه من كفاية ونشاط . ولعلنا فى هذه المناسبة نذكر قول شاعرنا القديم :

إذا سيد منا خلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول

فأهلا بالزميل الجديد ، ومرحبا به فى مجمع الخالدين .

• • كلمة الأستاذ عبد الله كنون :

سيدى الرئيس :

سادتى :

تتكافأ البلاد العربية مجدا وشرفا ، وتتعاطف إحساسا وشعورا ، وهى فى النهضة كأفراس الرهان تستبق إلى ما يعلى شأن العروبة ويرفع من قدرها إلى ما كانت عليه فى المـاضى وأكثر .

ونحن العرب وإن كنا من أصل واحد ونبعة مشتركة، وتؤلف بيننا هذه الضاد التى تصوغ فكرنا وتطلق ألسنتنا بمـا يزيد وحدتنا تماسكاً، وعروتنا توثقا ، إلا أننا بحكم تباعد الديار واختلاف المناخ قد يتميز مغرب منـا من مشرق، بل موطن من موطن ، بما لايعدو ما تتميز به بلدة من أخرى فى القطر الواحد، من بعض السمات والعلامات ، ولكن ذلك ليس بمؤثر فى العمق شيئا ، بل هو أحرى أن يكون مظهرا من مظاهر التكامل وانعكاسا لجميع السجايا والأوصاف ، ولو شئت لقلت اللغيات واللهجات التى عرفت بها بعض القبائل والبطون من أجدادنا العرب القدماء .

فمـا نشاهده من عادات وأعراف تختلف من بلد عربى لآخر ، لعله أن يكون ممـا أثر عن هؤلاء القوم أو أولئك من العرب الذين نزلوا بهذا البلد أو ذاك ، ومثل ذلك يقال فيما نسمعه من لفظ ونبر يختص بشعب عربى دون آخر ، ولو تفرغنا لدراسة ذلك ورده إلى مصادره الأولى لوقفنا على الكثير المعجب من أصول شعوبنا العربية وخصائصها .

أولئك مثل الطيب كلٌّ له شذى
ومجموعه أذكى أريجا إذا شُمّـا

لهذا كان تمثيل البلاد العربية فى مجمع اللغةالعربيةبالقاهرةفكرةصائبة وأمراضروريا من أجل استكمال الوجود العربى ، واستيعاب العناصر المكونة للطاقة اللغوية فى كل بلاد العرب ، ومن أجل التعريف بجهود المجمع فى سبيل النهوض باللغة العربية وإحلالها المحل اللائق بها بين اللغات الحية ، فإن هذه الجهود أو أكثرها يبقى مجهولا لدى أبناء العربية فى وطنهم الكبير الممتد من الخليج إلى المحيط ، ومن يستطيع أن يعرف بها غير رسل هذه البلاد الذين يشاركون بمـا أوتوا من علم

ومعرفة إلى جانب إخوانهم فى عاصمة الفكر العربى ، القاهرة المعزية الناصرية ، فى بنـاء ذلك الصرح العتيد ، ويلمسون من كثب ما يقوم به المجمع والمجمعيون من عمل عظيم فى هذا السبيل ، فيرجعون إلى قومهم يتحدثون بما رأوا وما سمعوا ، وينشرونه فى الأوساط العلمية التى تستفيد منه القائدة الجلة ، وبذلك تحصل النتيجة المرغوبة ولا يبقى أحد يتساءل : أين المجمع وماذا عمل؟ ومن يقل للمسك : أين الشذى ؟

كذبه فى الحـــال من شمّـــا

هذا إلى الإجماع من ممثلى البلاد العربية على مقررات المجمع وأوضاعه ، ذلك الإجماع الذى يقطع الشغب ويرد الدعوى بتعدد المصطلحات العربية واختلافها ، وهى ـعوى طالما رددها بعض الكتاب وركز فيها المتنطعون هجومهم على المجمع وعلى اللغة العربية ذاتها ، فمن المسلم به أنه بعدما ينعقد مؤتمر المجمع السنوى ، ويحضره النخبة المعنية بالمباحث اللغوية ، وتتفق كلمتها على ما يوضع بين أيديها من مصطلحات وقرارات تصبح هذه المصطلحات والقرارات هى المعمول بها والمعوّل عليها بالإجماع ، ويصير ما عداها لاغيا وغير مقبول .

وإننا إذ نتوصل من أمانة المجمع لما نتوصل به من أعمال المجلس لإبداء النظر فيها ، وإذ نجتمع هنا كل سنة فى المؤتمر ، إنما يحدونا هذا التوافق ، والعمل ضمن خطة موحدة لإرساء قواعد لغتنا ، وتصفية مواردها العذبة من الشوائب والأكدار ، فيأتى كل واحد منا بخير ماعنده ، ولا نثبت أننا وطن واحد تسكنه أمة واحدة وحسب ، ولكننا فوق ذلك ، نعمل ما عمله أجدادنا فى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وفى موسم الحج بخاصة ، فنختار من الألفاظ أعذبها ، ومن الأساليب أعجبها ، ونخرج بحصيلة من الكلم ، تؤدى ما نحن فى حاجة إليه من أغراض ومقاصد من غير أن تبعد بنا عن بيـان يعرب وقحطان ، وبلاغة السنة والقرآن .

واليوم هذه أرض الكنانة ، وهى حرم آمن للعلم تجىء اليه ثمرات العقول من كل الآفاق ، تمضى على سنتها المحمودة فتستقبل فى حظيرة مجمعها الموقر عضوا جديدا من بلد عربى ، عريق ، هو القطر التونسى الشقيق ، خلفا لزميل كريم ، ومجمعى عظيم ، خلا كرسيه باستئثار رحمة الله به .

وإذا ذكرنا تونس فإننا نذكر القيروان وحضارتها وعلومها وآدابها فى وقت كانت فيه ثالثة عواصم العالم العربى والإسلامى بعد بغداد وقرطبة ، ونذكر دولة الأغالبة وعظمتها ، وفتوحاتها التى جعلت من غرب البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية خالصة ، ناهيكم بفتح جزيرة صقلية وما نشأ فيها للعرب من مدنية وسلطان نوّه بهما شاعر الإسلام محمد إقبال حين قال ، وقد مر بهذه الجزيرة : « سلام عليك أيتها الأرض التى

التى تحتضنين حضارة الإسلام » . وحسبنا أن نذكر ابن رشيق وابن شرف من أبناء هذه الأرض الطيبة ، لنقدر ما ساهمت به فى الدراسات اللغوية والأدبية التى نعنى بها فى هذا المجمع ، فابن رشيق هو صاحب كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده الذى يعد من أوائل الكتب المنهجية فى هذا الفن ، وابن شرف هو الشاعر الذى عبر عن الزيف السياسى المتمثل فى حكومات دول الطوائف فى الأندلس ، بما صار مضرب الأمثال على لسان كل عربى ، حين قال :

مما يزهدنى فى أرض أندلس
أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهرّ يحكى انتفاخا صولة الأسد

فإذا انتقلنا من ميدان الأدب واللغة والشعر إلى ميدان العلم والفلسفة والاجتماع وذكرنا ابن خلدون من نوابغ تونس وعباقرتها ، فإننا نذكر ما يملأ النفس عظمة وفخرا ، ويطاول الزمان خلودا وذكرا . إنه المفكر العربى الأصيل السبّاق إلى وضع علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، والذى أحصى علوم عصره وقام بدراسة مقارنة بين حضارة الإسلام وغيرها من الحضارات ، وتنبأ بسقوط دولة العرب فى الأندلس ، وحلل النفسية العربية وعناصر تكوين المجتمع العربى . ووصف داءه ودواءه ، وبقى إلى آخر أيام حياته يعيش مع أحداث عصره ، ويندمج فى مختلف أوساط أمته ، مسجلا تجاربه وملاحظاته التى بهر بها الدارسين والعلماء من الغربيين قبل الشرقيين . وبذلك صح أن يعتبر أحد الأفذاذ من رجال الفكر العلمى الإنسانى فى العالم أجمع .

أما إذا أردنا أن نستعرض ما أعطته تونس فى مجال الفكر والدراسات الإسلامية ، فإن ذلك شىء يطول ، ولكن يكفى أن نبدأ بما أنجزه سحنون من عمل ضخم فى هذا الصدد ، وهو تأليفه للكتاب الذائع الصيت الذى يعد قمة كتب الفقه فى المذهب المالكى ، والمرجع الأول لمشترعى المالكية فى العالم الإسلامى ، أعنى كتاب المدونة الكبرى . وأن نختم بمختصر ابن عرفة فى المادة نفسها وهو الكتاب الذى استوعب بأوجز عبارة ، مسائل المدونة وما قام حولها من الدراسات ، وتميز بتعاريفه الدقيقة وحدوده المنطقية التى حيرت العلماء . ووضعت عليها كذلك الشروح والتعاليق . إن ذكر هذين العلمين الشهيرين سحنون وابن عرفة من رجال تونس النابغين فى العلوم الإسلامية هو من باب الاكتفاء بالعنوان عن قراءة الكتاب ، وإلا فإن من أنجبتهم الديار التونسية فى هذا الباب ، قبل وبعد ، هو مما يخطئه الحصر ، وأكثرهم إن لم أقل كلهم من ذوى الوزن الثقيل .

هذا فى الماضى . وفى الحاضر : هل أذكر جهاد تونس وتضحياتها الجسيمة فى سبيل الاستقلال وانتزاع حريتها من يد المستعمر الغاصب ؟ وهل أذكر كتابها ، وصحافيها

اللامعين الذين ناصروا القضية العربية والإسلامية وجهاد الشعوب الشقيقة فى المغرب والمشرق ، ولم يقصروا اهتمامهم قط على قضية بلادهم رغم ما كانوا يتعرضون له من امتحان واضطهاد ؟ وهل أذكر علماءها الكبار الذين أدركنا بعضهم أحياء مثل الشيخ سالم أبوحاجب الذى ألحق الأحفادبالأجداد، والشيخ المكى ابن عزوز الذى عرفه المغرب والمشرق بسعة العلم والاطلاع إذ عاش ردحا من عمره فى الآستانة عاصمة الخلافةالعثمانية ؟ وهل أذكر أمير شعرائها الصديق النبيل الشاذلى خزندار ، ونابغتها الفذ أبا القاسم الشابى ؟ وهل أذكر الشيخ الخضر حسين الذى ولى مشيخة الأزهر وكان مثال العالم المتخلق الكريم ، وفقيدينا العزيزين حسن حسنى عبد الوهاب والفاضل ابن عاشور ؟

إنها سلسلة طويلة كثيرة الحلقات ، والوقت لا يسمح بتتبع أفرادها وذكر أسمائهم ، وكيف بالكلام عليهم والتعريف بهم ؟.

والمراد أن أقول إن هذه هى تونس التى ثلج مجمع اللغة العربية اليوم بمثلها الجديد من بابه الواسع ، فـاذا عن هذا الزميل الفاضل ؟

إن الأستاذ القليبى يحمل اسم الشاذلى ، وتلك لمحة أخرى من لمحات الحياة الروحية لشعب تونس الكريم ، لا سيما إذا عرفنا أن هذا يشيع بين التونسيين كثيرا : وقصة ذلك أن الشاذلية كان لها انتشار كبير فى تونس ومريدون صادقون متمسكون بحبلها متفانون فى حبها حتى إنهم يسموه أبناءهم بوصفها الذى يفيد الانتماء اليها منذ الولادة ، أملا فى سلوك طريقها الواعية والنشوء على تربيتها الحسنة :

والشاذلية كما لا يخفى هى مذهب من مذاهب التصوف ، أنشأه الشيخ أبو الحسن الشاذلى الغمارى المغربى ، تلميذ الشيخ عبد السلام بن مشيش صاحب الصلاة المشيشية المعروفة ، وبناه على طريقة الجنيد إمام الصوفية من أهل السنة ، وطهره من بدع المتصوفة المدعين وضلالاتهم التى تجافى أصول الدين، وجعل أساسه محبة الله ورسوله والتمسك بالشريعة النبوية الغراء ، طبقا للحديث الشريف القائل : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

وقد كان الشاذلى مرّ بتونس عند رحلته إلى المشرق فأخذ الناس عنه وانتشر مذهبه هناك ، وكان من تأثيره فى المجتمع التونسى ما رأينا من الإخلاص له والتعلق به إلى حد تسمية الآباء أبناءهم فى القرن العشرين بما يرجى من الاتصاف به .

ولئلا يكون كلامى هذا من باب الشعر والخيال أذكر بعض الوقائع التاريخية التى تصوّر لنا المجتمع التونسى كما وصفناه ، وهى مما ذكره أحد علمائها الأثبات الثقات وليس مما رواه الإخباريون أو القصّاص ، وذلك ما جاء فى شرح العلامة الأبىّ على صحيح مسلم ، وهو تلميذ ابن عرفة سالف الذكر ، فقد قال : « كان قضاء تونس فى أيام الدولة الموّحدية لا يولاه إلا قضاة من مراكش ، فاتفق مرة أن قدم إليها قاض فجلس مجلس الحكم فبقى أياما لا يأتيه أحد ، فظن أن القوم لم يرضوا به ، ثم قدم إليه خصمان من أهل سوق الجبة فقال أحدهما : أصلحك الله إن هذا شريكى وقد باع جُبّة من أعرابى وأنا لا أستحل مال الأعراب . فعلم القاضى حينئذ أن عدم اتيان الخصوم إليه إنما هو لتناصفهم ومراعاتهم جانب الله » . ويعنى بالأعراب عرب الصعيد الذين اكتسحوا الشمال الإفريقى وكانوا ثائرين على السلطة الشرعية ، فأموالهم لم تكن تخلو من شبهة .

وهذه واقعة أخرى مما رواه الأبىّ أيضا قال : « وسقط دينار من أحد المارة بطريق العطارين فبقى ملقى مدة لا يرفعه أحد ، ثم بعد ذلك لم يوجد فقال الناس : اليوم دخل بلدنا غريب » .

تلك هى بعض الملامح من صوفية المجتمع التونسى الذى حقق ما حلم به الفلاسفة قديما من المدينة الفاضلة ، وذلك هو بعض مايوحى اسم الشاذلى لكل تونسى فاضل حين يسمى ابنه به ، كما فعل والد زميلنا الكريم .

وقد ولد الأستاذ الشاذلى القليبى فى عاصمة تونس بتاريخ ٦ من سبتمبر سنة ١٩٢٥ م ، وزاول تعليمه الابتدائى والثانوى بالمدرسة الصادقية ، وبعد التخرج منها التحق بجامعة السربون فى باريس حيث واصل دراسته العالية وحصل على شهادة الإجازة فى الآداب العربية سنة ١٩٤٨ م ، ثم على شهادة الإجازة فى الفلسفة سنة ١٩٤٩ م ، ثم على شهادة التبريز فى الآداب واللغة العربية سنة ١٩٥٠م ورجع إلى وطنه تونس واشتغل بالتعليم فى السلك الثانوى ، وبإلقاء بعض الدروس فى معهد الدراسات العليا الذى كان حينئذ يعد فرعا لجامعة باريس فى تونس ، وفى سنة ١٩٥٧ م التحق نهائيا بالتعليم العالى فكان من الأساتذة المؤسسين لمدرسة المعلمين العليا ، وفى سنة ١٩٥٩ م دعى للاضطلاع بالإدارة العامة للإذاعة والتلفزة ، وفى سنة ١٩٦١ م عيّن وزيرا للشئون الثقافية والأخبار ، وبقى فى هذا المنصب إلى منتصف سنة ١٩٧٠ م وهو الآن نائب بمجلس الأمة ، ورئيس لبلدية مدينة قرطاج ، ورئيس للمركز الثقافى الدولى (بالحمامات) .

إنها وظائف هامة شغلها ويشغلها الأستاذ القليبى منذ انتهاء تحصيله ، ومسئوليات كبيرة تحملها بجد وإخلاص ، اهتماما بنشر العلم وتثقيف العقول تارة ، وقياما بواجبه الوطنى فى تسيير أجهزة الدولة تارة أخرى ، فهو رجل علم وعمل وتفكير وتدبير ، برهن

على علمه بدروسه التى استفاد منها العديد من التلامذة والطلاب ، وأسندت إليه الدولة مهام جسيمة فأظهر من الكفاءة والمقدرة فى الاضطلاع بها ما جعلها تنقله من مهم إلى مهم ، ثقة به واعتمادا عليه، وهكذا نجح فى الميدانين الثقافى والإدارى وكان من خاصة من قيل فيهم :

إذا أيقظتك حروب العـــدا
فنبِّـــه لهـــا عمـــرا ثم نم

وللأستاذ الشاذلى القليبى مجالات أخرى من النشاط الاجتماعى والثقافى علاوة على ما كان يتقلده من وظائف ومسئوليات، فقد انتسب منذ عودته من فرنسا سنة ١٩٥٠ م إلى الحركة العمالية التى أصبح فيما بعد من قادتها المرموقين، كما شارك فى تحرير جريدة الصباح اليومية منذ بروزها إلى الوجود وأشرف على إدارة جريدة صورة العمل التى يصدرها الاتحاد العام التونسى للشغل ابتداء من سنة ١٩٥٤ م إلى سنة ١٩٥٦ م وكثيرا ما حرر المقالات الافتتاحية لجريدة لكسيون الفرنسية التى تصدر اليوم باسم جون أفريكا .

وكان من أكبر المشاركين فى تحرير مجلة البندوة من أول ظهورها سنة ١٩٥٣ م وتولى الإشراف على إدارتها وتحريرها سنتى ١٩٥٤ ١٩٥٥ م . . . وهذا النشاط الحافل فى العمل الصحفى باللسانين العربى والفرنسى لا بد أن يكون له حصيلة أدبية ذات نزعة إنسانية ولاسيما ما اختص منه بالنضال العمالى، وهو نضال قديم فى تونس أفرد بالتأليف ، فلو جمع ما كتبه الأستاذ فيه لتهيأ لنا أن نطلع على أفكاره فى هذا الموضوع الذى يمت إلى الحركات الليبرالية فى العالم بسبب وثيق .

وللأستاذ القليبى مشروعات تآليف أدبية لم تدع له اهتماماته الكثيرة المتنوعة من الوقت ما يمكنه من تحقيقها وإخراجها إلى حيز الوجود . . وقد نشر له بحث فى مشكلة فلسطين بعنوان « العرب أمام قضية فلسطين» وله كتاب قيد الطبع يحمل اسم « آفاق ومسالك » .

ويعتبر زميلنا الجديد رائدا للثقافة التونسية الحديثة ، فهو أول من خطط لها وأوضح معالمها ، وأول تونسى أشرف على جهاز حكومى يضم جميع اختصاصاتها فى وزارة الشئون الثقافية التى بقى فيها تسع سنوات ، متوالية يرسى قواعدها فى مختلف المجالات ، وإليه يرجع الفضل فى إحياء التراث الفكرى والفنى والتاريخى بتونس .

وقد عرف له فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية هذه المزيه فقلده الوشاح الأكبر من وسامى الاستقلال والجمهورية ، كما عرفت مزاياه كثير من الدول الشقيقة والصديقة وفى طليعتها الجمهورية العربية المتحدة التى قلدته أيضا الوشاح الأكبر من وسام الجمهورية المصرى:

وأخيرا اختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م عضوا عاملا ممثلا لتونس خلفا للعلامة المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب .

أيها السادة :

هذا هو الزميل الجديد الذى شرفنى المجمع بأن أكون نائبا عنه فى استقباله وأن أقدمه إليكم بحكم أننا معا ننتمى إلى المغرب العربى . وقد رأيتم أنه شخصية لامعة وأنه جدير بهذا الشرف الذى أولاه إياه مجمع الخالدين . فهو يجر من ورائه تاريخا حافلا بالمجد والعظمة وماضيا زاهرا بالعلم والحضارة لبلد يأتى فى الطليعة من بلاد وطننا العربى الكبير هو تونس الخضراء . وهو يمثل الجيل الصاعد من أبناء الجمهورية التونسية الذى ناضل فى غير ما ميدان من أجل بناء الاستقلال والمحافظة على الذاتية العربية لبلده ، بما أعلى للثقافة من شأن ، وما أحيا من تراث الفكر العربى الذى أخنى عليه الإهمال والنسيان .

والمجمع إذ يفتح أبوابه فى وجوه العاملين المجدين الذين تتدفق فى عروقهم وقلوبهم دماء الشباب الحارة ، إنما يريد من ذلك أن يعزز جهود الشيوخ الراسخين ويزاوج الحكمة والمقدرة . ولذلك فإن زميلنا الجديد ، وإن كان يخلف علما من أعلام الفكر ، وطودا من أطواد المعرفة ، وعضوا قديما من أعضاء المجمع سابر الركب وشارك فى أعماله من لدن إنشائه وتكوينه ، فإنى مستبشر به ومتوسم فيه أنه سيكون خير خلف لخير سلف ، لأنى لا أرى قصر الفضائل على المتقدمين وحتمية تفوق السابقين على اللاحقين خصوصا فى مجال العلم والأدب ، ولله درّه العلامة ابن مالك النحوى الطائى الجيانى الدمشقى الذى قال فى طالعة كتابه التسهيل : « وإذا كانت العلوم منحا إلهية ومواهب اختصاصية فغير مستغرب أن يدخر منها للمتأخرين ما عسر نيله على كثير من المتقدمين » . والأمر على كل حال يتعلق بالجد والاجتهاد والمثابرة والمصابرة ، كما قال ابن البناء السرقسطى فى المباحث الأصلية :

ولم تزل كل نفوس الأحيـــا
عـــلامة دراكة للأشيـــا
وإنمـــا تحجبهـــا الأبـــدان
والأنفس الـــنزع والشيطان
فـــكل من أذاقهم جهـــاده
أظهر للعاجز خرق العـــادة

والأستاذ القليبى قد عرفنا من جهاده الدائب وكفاحه المستمر ما يجعلنا نؤمن بأنه سيملأ الفراغ الذى تركه سلفه المرحوم فى العمل المجمعى ، وأنه سيكون منه للمجمع خلف تقر به الأعين .

وإنى أقدم له أصدق التهانى لعضوية المجمع وأتمنى له النجاح التام فى مهمته الجديدة وذلك باسمى وباسمكم جميعا ، وأهدى إلى تونس المنجبة تحيات المجمعيين وعواطفهم السامية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

• • كلمة الأستاذ الشاذلى القليبى :

سيادة الرئيس

حضرات السادة الأعضاء المحترمين

أيها السادة والسيدات :

فى هذه اللحظة التى أقف فيها أمامكم تخالجنى جملة من المشاعر ليس من الهين أن أميز بعضها من بعض ، فأحللها مما أبتغى من دقة ووضوح . ولعلها ، إذا أنا رمت إجلاءها وتمحيصها ، تفقد هذا الطعم السخى الذى تختص به ، والذى هو من اعتمالها فى وحدة متماسكة متضافرة .

فلقد استمعت بمزيد التأثر للكلمة اللطيفة التى تولى إلقاءها باسم المجمع الأخ العزيز الأستاذ عبد الله كنون ، وإن كنت متحرجا مما اشتملت عليه فى حقى مما ليس من حقى .

فاسمحوا لى بأن أتوجه إليه بجزيل الشكر وأخلص شواهد العرفان مشفوعة بالمودة والتقدير.

ولاشك أن أهم ما يفعم نفسى ، وأنا أحضر هذه الجلسة التى تتفضلون فيها باستقبالى ، إنما هو شعور الاعتزاز بالانتساب إلى هذا المجمع الجليل الذى سجل له التاريخ من الخدمات فى الذود عن العربية وإبراز طاقتها ما جعله بحق أولى المؤسسات الثقافية فى العالم العربى .

وإنى ، إزاء هذا الاعتزاز ، لا أجد بدا من الاعتراف بأنى أوجس فى نفسى نوعا من الإشفاق من مشاركتكم تحمل هذه المسؤولية الثقيلة التى تضطلعون بها عن جدارة وسعة علم .

على أنى قد يشد أزرى ، فى هذا الموقف أمامكم ، أنى من الذين ، إن تعذر عليهم أن ينقطعوا للبحث والدرس طوال حياتهم ، فعساهم لم يعدموا فرصة النضال فى سبيل إحياء الثقافة العربية وتدعيم مكانتها بين الأجيال الصاعدة .

وهل لمجمعكم هذا من غاية أنبل من الحفاظ على الذاتية العربية ، بإحياء مقوماتها وتوثيق أواصرها وتدعيم أركانها ؟

لذلك أجدنى — سيادة الرئيس ، حضرات السادة الزملاء — معتزا ، عظيم الاعتزاز ، بهذه الدعوة الكريمة التى تفضلتم بها والتى تخولنى شرف الانضمام إلى مجمعكم .

ذلك أنى أشعر صادق الشعور بتجاوب عميق بين ما كنت فيه من عمل وفكر فى حقل الدولة ، وما رسمه المجمع لنفسه من أهداف تتلخص فى كلمات ثلاث : الحفاظ والتطوير والشمول ، أى جمع كلمة كل من يعنون

بمصير اللغة العربية وثقافتها ، من المشرق ومن المغرب على السواء ، لتحقيق الحفاظ والتطوير :

وإنه لمن مفاخر المجمع أنه لم يقصر عمله على البلاد المصرية بل تخطى حدود الأوطان السياسية وأراد لرسالته إشعاعاً غير مقطوع ولا ممنوع : فاحتضن من مختلف الأقطار العربية : أعلاماً أجلاء ساهموا فى تدعيمه وآزروه فى النهوض بأعباء المهمة الملقاة على كاهله .

ومن بين هؤلاء رجال من المغرب العربى الكبير : ومن تونس على الأخص ،شخصيات من أفذاذ علمائنا قاموا بدور هام فى تركيز المجمع النهج لمساعيه الموفقة . منهم من كان قد استوطن مصر كالشيخ محمد الخضر حسين ، ومنهم من اختير لعضوية المجمع رغم بعد الشقة كالشيخ الإمام الطاهر ابن عاشور حفظه الله وأمد فى أنفاسه والمرحومين الأستاذين حسن حسنى عبد الوهاب والشيخ محمد الفاضل ابن عاشور .

ولئن كانت التقاليد المجمعية تقتضى المبادرة بالحديث عن السلف الذى دعيت إلى خلافته بالمجمع ، فإنى أستأذنكم ، قبل التفرغ لذلك ، فى كلمة أرى لزاما على أن أترحم بها على روح شيخنا الأستاذ الفاضل ابن عاشور الذى وافاه الأجل وهو فى عنفوان قوته الفكرية ، يكافح من أجل إعلاء شأن اللغة العربية وإشعاع الثقافة الإسلامية .

ولقد كان يحتل منزلة خاصة فى تونس وفى بلاد المغرب الكبير ، إذ كان يمثل الوفاء المثير للقيم الروحية فى أجلى مظاهرها ، والذود عن مقومات تراثنا الثقافى والحضارى مع التفتح الخصيب لتيارات الفكر الحديث وشواغل العصر ، بحدوه فى ذلك يقين المؤمن بأنه ليس بين هذه وتلك تناقض فى الجوهر ولا فى الغايات .

وكان — من جملة سلوكه ومواقفه — يتضوع معنى أساسى : هو طلب الموافقات والسعى إلى التأليف ، والحرص على الملاءمة بين أنماط وشواغل وقيم ، يعتقد فى قرارة نفسه أن الجمع بينها ضرورى لحياة الإنسان .

ولقد خبرتم تبحره فى العلوم العربية والإسلامية وهو ، مع التوغل فى جميعها ، لم يكن يتقيد بلون من ألوانها . فقد كان مع الإحاطة بالعلوم الشرعية مولعا بالدراسات اللغوية والأدبية ، مشغوفا بالأبحاث التاريخية ، ذا مشاركة مرموقة فى جميعها ، دون اقتصار على القديم منها ولا إغفال لأى مشرب من مشاربها . فتهيأت له بذلك ثقافة موسوعية فى غير عسف ، طريفة حية فى غير تكلف .

إلى جانب هذه الثقافة التقليدية المتنوعة ، كان الشيخ الفاضل دائم السعى إلى الاطلاع على الثقافات الأجنبية ، والتفتح لمقتضيات الروح العلمى الجديد والتجاوب مع مشاغل الشباب .

فلا عناصر ثقافته الأصلية بقيت لديه منفصلة بعضها عن بعض ، ولا فكره النير بقى بمعزل عن تيارات العصر ، بل انصهرت هذه وتلك حتى تألف منها ثقافة فذة حية متحركة دوما بحكم التحاور والتفاعل بين التقليد والاجتهاد . فكان لذلك يغتبر بحق نموذجا لفئة المفكرين الذين يقومون فى تونس بحركة التوفيق بين الحفاظ والتجديد .

وإلى هذه الفئة ينتسب سلفنا نابه الذكر المؤرخ التونسى المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب .

وقد كان من الأعضاء المؤسسين لهذا المجمع ، من أولئك الذين قال عنهم حضرة الأمين العام الدكتور إبراهيم مدكور إنهم « الرعيل الأول الذى أسهم فى بناء مجمع اللغة العربية وتشييد صرحه » ، وإنه كان أحد خمسة من أعلام العالم العربى وشيوخه فى الأدب واللغة ... صدر بتعيينهم مرسوم ملكى فى السادس من أكتوبر لعام ١٩٣٣ ، بقوا أعضاء بالمجمع إلى أن لقوا ربهم ، يمدون المجمع بفيض من واسع علمهم ، ويغذونه بغذاء صالح من دقيق بحثهم »

هذا ما تفضل به السيد الأمين العام فى أربعينية الفقيد المنعقدة بتونس يوم ١٥ جانفى ١٩٦٩ ، وقد استهل به كلمته القيمة التى ألقاها نيابة عن المجمع وتعزية لتونس باسم هذا القطر الشقيق .

ولقد كان لهذه التحية وقعها البالغ فى أوساط المثقفين التونسيين ، إذ بين تونس ومصر أواصر أخوة وتعاطف وتقدير متأصلة فى النفوس والتاريخ . وقد كان الفقيد يعتبر مصر وطنه الثانى ، يحبه ويعتز به . ولقد سأله الملك فؤاد عن رأيه فى مصر فقال له : « سئل أبو العباس المقّرى ، مصنف كتاب نفح الطيب ، عما شاهده بمصر حين زارها ، فأجاب : « من لم يزر مصر لا يعرف عز الإسلام » . وأنا أقول بقوله ولا أحيد عنه .

ذلك أن حسن حسنى عبد الوهاب شب واكتهل فى عصر كانت فيه معظم البلاد العربية تحت السيطرة الأجنبية ، وكانت مصر إذ ذاك فى طليعة الحركة التحريرية ، قد خطت فى ميادين السياسة والثقافة خطى جعلتها محل اعتزاز العرب كافة .

فقد ولد سنة ١٨٨٤ ، أى بعد انتصاب الحماية الفرنسية على تونس بنحو ثلاثة أعوام . فنشأ فى بلد مبتور السيادة ، خاضع لدولة أجنبية تتولى إدارة شئونه ، وتسعى بكل وسائل القهر والإغراء إلى إدماجه فى القومية الفرنسية لسانا وثقافة وحضارة .

وكان والده متخرجا من الزيتونة ، ولكنه تعلم الفرنسية حتى أجادها ، وكان موظفا فى الدولة ، ومولعا بالتاريخ .

وكان من الطبيعى أن يحرص الوالد على تلقين ابنه الثقافتين العربية والفرنسية معا . فوجهه إلى المدرسة الصادقية التى كانت أسست فى عهد الإصلاح قبيل انتصاب الحماية الفرنسية .

وقد كان لهذا المعهد دور خطير جدا فى تكوين الجيل التونسى الجديد الذى اضطلع ، مع ثلة من خريجى الزيتونة ، بقيادة الحركة الوطنية والفكرية فى تونس ، فى صدر هذا القرن .

ذلك أن برامج التعليم فى المعهد الصادقى كانت ترمى إلى هدفين أساسيين : فكانت تعنى بتعليم اللغة والأدب مع تلقين الاعتزاز بالحضارة العربية الإسلامية،وذلك على يد نخبة من أكابر شيوخ الزيتونة خاصة ، ولكن فى نفس الوقت كانت هذه البرامج تقتضى تعليم اللسان الفرنسى وجملة من العلوم والفنون الحديثة ، وهى بذلك تمكن الطلاب من ثقافة عصرية متفتحة الآفاق .

فكان المعهد الصادقى إذن يجمع بين محاسن التعليم الزيتونى من حيث هو تعليم قومى أصيل ، وبين مزايا التعليم الفرنسى من حيث هو تعليم عصرى متفتح . وكان ذلك يساعد متخرجى الصادقية على الانخراط بالجامعات الفرنسية .

ولقد تابع حسن حسنى عبد الوهاب دراساته العليا بباريس بمدرسة العلوم السياسية كما كان يحضر دروسا ومحاضرات فى علوم شتى . ولكن ظروفا عائلية عاقته عن المواصلة فعاد إلى تونس،وانخرط فى سلك الوظيفة العمومية،ولم يزل بها يتقلب فى مختلف المناصب السامية حتى أقعده المرض قبيل وفاته ببضع سنوات .

ولئن كانت حياة الفقيد حافلة بأنواع النشاط الخاصة بمجالات الإدارة والدولة ، فقد كانت أيضا مليئة بالأعمال العلمية الجليلة وذلك منذ ريعان شبابه . فقد كلف بدروس فى التاريخ العام سنوات طويلة بمعهدين من أشهر المعاهد التونسية الحرة . وحضر أغلب مؤتمرات المستشرقين ابتداء من سنة ١٩٠٥، وكانت له بها مشاركة مرموقة ، وأسندت إليه رئاسة الوفد التونسى إلى مؤتمر الموسيقى الشرقية الذى انعقد بالقاهرة سنة ١٩٣٢ ، وخلال هذه الرحلة تمكنت علاقات مودة وتقدير بينه وبين عدد من شخصيات العصر ، فى مقدمتها الملك فؤاد ، وكان يقول عنه : « وفى نظرى أن الملك فؤاد كان بلا نزاع من أجلّ ملوك المسلمين ومن أقواهم حبا لجمع كلمة العروبة ورغبة صادقة فى الدفاع عن الحضارة الإسلامية . . . » .

وفى شىء من الاعتزاز ، يضيف قائلا : « هو الذى عينى عضوا دائما فى مجمع اللغة العربية لأول تأسيسه آخر سنة ١٩٣٢ » .

وقد كان المرحوم عضوا فى مجامع علمية كثيرة ، نخص بالذكر منها المجمع العلمى

ربى بدمشق منذ تأسيسه ، والمجمع العلمى العراقى ،والمجمع الفرنسى للنقائش والفنون الجميلة ، والمعهد التاريخى الأسبانى .

وللفقيد إنتاج كثير متنوع ، متجه أغلبه إلى تاريخ تونس ومظاهر الحضارة العربية الإسلامية بها ،وكان ذلك موقفا تجاه تيارات الفرنسة التى كادت تكتسح الذاتية العربية فى بلاد المغرب ،وتطمس معالمها عن الأجيال التى نشأت بعد الاحتلال الفرنسى .

أما الأغراض العامة التى تناولتها مختلف أبحاثه التاريخية ، سواء منها الكتب والمقالات والفصول — وهذه تمثل أغلب إنتاجه — فليس أبلغ فى تحديدها مما كتبه هو نفسه فى وصف تأليفه الجامع الذى أسماه « كتاب العمر » ، ولم تسمح له الأقدار بإتمامه قبل وفاته ، إذ يقول عنه :

« والكتاب الذى أشير إليه يتضمن كل ما يمت بصلة إلى تاريخ العلم والاجتماع والأدب والفن فى البلاد التونسية منذ استقرت بها طلائع النور العربى إلى هذا الزمان القريب[1] » .

ويبين المؤلف مقاصده التى يرمى إليها من وراء هذه الأبحاث ، فيقول :

« وأرجو أن تلقى من النابتة الجديدة إقبالا يزيد به التونسيون المحدثون ارتباطا بماضيهم الخالد ، ويتلمسون فيه عونا على مستقبلهم الزاهر . فإننى لأومن أصدق الإيمان بأن جذورنا المتأصلة فى تاريخ أجدادنا وثيقة الصلة بوعينا القومى الحديث[2] . . . »

وبقدر ما كان المؤرخ التونسى مغرما بالتاريخ العربى باعتباره مرآة لأمجادنا الماضية ودعامة أساسية من دعائم الذاتية القومية ، كان يحرص على الاقتباس من الطرائق العلمية الجديدة لدرس هذا التاريخ وإجلاء غوامضه ، وقد مكنته ثقافته الفرنسية من الاطلاع عليها فى تأليف المؤرخين الغربيين ، وخاصة فى أبحاث المستشرقين الذين عنوا بدراسة الحضارة العربية وتاريخ الشعوب الإسلامية .

ومن الجدير بالتذكير أن المؤرخ عبدالوهاب كتب الكثير من بحوثه بالفرنسية ، وذلك إما لتقديمها إلى مؤتمرات عالمية ، وإما للإسهام بها فى نشريات ومجلات أجنبية ، نخص بالذكر منها دائرة المعارف الإسلامية التى أمضى العديد من فصولها .

ومن الحق أن نقول أيضا إنه كان فى طليعة المؤرخين العرب المحدثين الذين أخضعوا البحث التاريخى لمعطيات الآثار ، لاستنباط ما ليس مذكورا فى الكتب أو لمكافحة المعلومات المنقولة فيها ، بما تشهد به النقائش والنقود ومختلف الأعراض التى تكشف عنها الحفريات .

---

(١) ورقات ، ١ ، ص ٧

(٢) ورقات ، ١ ، ص ١٠ ، ١١

فمن هذه الوجهة ، يمكن القول فى غير مبالغة إن عبد الوهاب خطا بالدراسات التاريخية فى تونس أشواطا وجعلها تتصف بالدقة والأمانة ،وتهتم بالنفاذ إلى المقومات الحضارية .

كما كان له فضل لا ينكر فى توجيه ما يسميه بـ « النابتة الجديدة » إلى الاهتمام بالآثار والغيرة عليها باعتبارها أحد المصادر الهامة لتاريخ البلاد .

وكان له تأثير غير قليل فى أوساط الباحثين الشبان ، سواء منهم الجامعيون أو غيرهم . فقد كان كثير الاتصال بهم يجتمع بهم فى بيته ويساعدهم فى أبحاثهم ، ويطلعهم على ما جمعه من نفائس التحف والمخطوطات .

والحق يقال لقد كانت للفقيد شخصية جذابة ملكت له قلوب أصدقائه ومر يديه بما اجتمع فيها من شمائل شرقية عذبة ،ونواح مغربية لطيفة ،جعلت مجالسه عنوان الإمتاع والمؤانسة ومنتدى رجال الظرف والعلم .

وقد لا يكون من المبالغة فى شىء أن نقول إن تأثيره بالاتصال المباشر وبالسمر وبالإشعاع الشخصى لم يقل أهمية عن تأثيره بواسطة كتبه وبحوثه المنشورة .

على أن حسن حسنى عبد الوهاب ، وإن غلب عليه الولوع بمادة التاريخ ، لم يكن ذلك ليثنيه عن الاهتمام بما سواه من العلوم والفنون . فكان واسع الاطلاع على الأدب واللغة . تشهد بذلك فصول له وتحقيقات لنصوص قديمة تولى نشرها والتعريف بها ، كما تشهد على ذلك مساهمته فى مداولات المجمع ، سواء منها العادية أو المتعلقة بمشا كل حيوية تهم حياة اللغة ورسالتها الحضارية ومكانتها بين سائر اللغات الحية فى القرن العشرين .

ولا جرم أن كان اهتمامه باللغة من الوجهة التاريخية ، ينظر إلى اللغة نظرة المؤرخ الذى يعتبرها ظاهرة تاريخية واجتماعية واجب درسها من بين جملة المظاهر الحضارية التى يعنى ببحثها وإجلاء العوامل المؤثرة فيها .

وقد وقف فى هذا الصدد مواقف معروفة مدرجة فى سجلات المجمع ، وكان صادرا فيها عن نظرة متحركة هى أقرب إلى ما تعودناه عند سلفه ، تونسى النشأة والثقافة ، عبد الرحمن بن خلدون ، الذى كان له شأن أيضا فى هذه البلاد ؛ فكانت نظرته إلى اللغة نظرة المؤرخ المفكر الذى لا يرضى بالوقوف عند الأحداث الماضية يصفها ويعللها ، بل هو يسعى إلى ربطها بالحاضر ؛لإجلاء معالم الحاضر واستكشاف ملامح المستقبل . ذلك أن عبد الوهاب ، وإن كانت نفسه تطفح بالاعتزاز بأمجاد العروبة والإسلام — ولربما من أجل هذا الاعتزاز — لم يكن يطمئن إلى ما آلت إليه العربية من ركود أضعف قدرتها على الأداء ،وحط نفوذها الحضارى .

وهو فى الحقيقة مشكل المشاكل ، لزام علينا أن نمعن النظر فيه لأنه متصل بمنزلة الثقافة العربية بين الثقافات الغازية التى تتنازع السيطرة على العالم .

فنحن ننتمى إلى لغة فذة بما تختص به من أساليب فى الأداء والإبلاغ ، وكذلك فيما انفردت به من استقرار رغم التطور وانمو اللذين لازماها منذ البدء، غير أن صورة عنها ضيقة شاعت فى بعض الأوساط من أبنائها — ومن غير أبنائها — تقول بأنها لغة خطابة وترتيل . ولا شك أن الذين يأخذون بهذا الرأى يقصدون أن العربية من طبيعتها عدم التقيد بالضبط والجموح عن مسالك التوضيح.

وصحيح أن أولى خصائص العربية أنها لغة خطابة وترتيل ، بها نزل الكتاب المبين الذى من أسمائه « القرآن » و « الذكر » ، إشارة بذلك إلى أنه أولا وبالذات « خطاب » موجه إلى الناس يرتل ترتيلا . ولعل هذه الظاهرة الخاصة بالعربية هى التى جعلت الشعر العربى فى مختلف عصوره وأطواره تغلب عليه أريحية الخطابة وإيقاعات الترتيل .

ولكن ، إن كانت العربية لغة خطابية مثلى فإنه من الحيف حصر طاقاتها فى ذلك . وهى — على كل — لم تقصر عن القيام بالدور الجديد الذى دعيت إليه لما أصبحت لغة أمة فاتحة ، عليها أن تبنى حضارة من أهم الحضارات الإنسانية . فإذا هى سرعان ما تطورت إلى لغة كتابة وتأليف ، ولغة إدارة وفقه وتشريع ، ولغة فلسفة وعلوم وصناعات . فاتسع مجالها، وظهرت لها وجوه وطاقات جديدة، تنقاد لأغراض ابن المقفع والجاحظ، وتفى بحاجة الفارابى وابن رشد وابن خلدون ، دون أن يمس ذلك التطور جوهرها أو يمزق لحمتها .

ذلك أن اللغة على شاكلة البشر الذين يتكلمونها ، فيخضعونها لأغراضهم المختلفة وحاجاتهم المتجددة .

وإنما غلب الجمود عليها فى عصور الانحطاط لما تقلصت الانتفاضات الفكرية وضعفت جذور الفكر عن مواصلة العمل الحضارى، الذى قوامه اجتهاد متواصل وكشف عن مغلقات الكون، وسبر دائم لخفايا الإنسان. فلم تعد المجتمعات العربية قادرة على ترويض لغتها؛ إذ لم تعد قائمة بالدور الخلاق الذى كانت اضطلعت به فى ميادين الفكر والعلم .

وإنما بسبب توقف هذا العمل الحضارى الخلاق حدث التقطع فى سيل اللغة ، فتجمدت الفصحى لغة أهل الفكر والعلم فى حين انطلقت لغة الكلام فى مسالكها الخاصة بحكم الضرورة . ولم يزل الفتق يتسع بينهما حتى أصبح هذا البون الذى نشهده اليوم ، وفى ذلك يكمن أخطر مشكل تجابهه العربية فى نهضتها الحديثة.

فنحن لا يهمنا من اللغة هذه الثنائية بين الفصحى والدارجة بقدر ما يهمنا جمود الفصحى وانفصال الدارجات عنها .

وقد تعرضت شعوب كثيرة لمثل هذا المشكل، ولكنها استطاعت أن تتغلب عليه بفضل ما احتفظت به الفصحى عندهم من دور إيجابى فى مجالات الفكر والفنون الصناعية ، وبفضل ما تهيأ لهذه الشعوب منذ أمد طويل من نشر واسع للتعليم باللغة التى اعتبرتها وهى الفصحى .

وليس أبلغ حجة على ذلك من التطور الذى نشهده اليوم، نتيجة انتشار التعليم ووسائل الإعلام والتثقيف فى أغلب البلاد العربية .

فالتعليم يؤثر فى الفصحى من جهة؛ وذلك بأن يدخل عليها مفاهيم وصيغا فكرية جديدة، إذ يستعملها فى تبليغ معان وعلوم لم تكن تدرس بها ، وهو ، من جهة أخرى ، يقرب البون بين الفصحى والدارجات لدى فئة المتعلمين ، نظراً إلى ما يقع بين هذه وتلك من تفاعل .

أما الوسائل السمعية البصرية المتجهة إلى الجماهير ، كالإذاعة والتلفزيون والسينما ، فإنها تقوم اليوم بنشر لغة فصحى مبسطة — سميت أحيانا باللغة الثالثة — قد أخذت تشيع بين الناس ويتضافر مفعولها مع تأثير التعليم .

لذلك نعتقد أن قضية اللغة العربية ، وما تعانيه من صعوبات فى الأداء والتبليغ فى ميادين الفكر والعلوم ، إنما هى قضية حضارية ، لا قضية لغوية . والأمر فيها راجع إلى موقف الشعوب العربية ، وراجع أولاً وبالذات إلى موقف النخبة المستنيرة وصحة عزيمتها على كسب الرهان الحضارى الذى تواجهه .

فكثيرا ما يتساءل المثقفون: هل العربية فى مقدورها أن تصيغ من جديد لغة العلوم والفنون الصناعية ؟ ويبدو أن السؤال ينبغى أن يكون : هل المجتمعات العربية قادرة على إعطاء اللغة العربية هذه المكانة ؟ وذلك مرتبط بقدرتها ، أى قدرة هذه المجتمعات ، على أن تنبت فئة من رجال الفكر والعلم يساهمون فى عملية الإنشاء والابتكار ، عوض الاقتصار على الاستهلاك السلبى بالنقل والتقليد .

فالقضية تعود إذن فى آخر الأمر إلى قدرة المجتمعات العربية على الخروج من طور التخلف واللحاق بركب الحضارة الجديدة والمشاركة الإيجابية فى تشييد هذه الحضارة .

وبذلك نلمس مدى التضامن المكين بين النهضة الثقافية والنهضة الحضارية التى تهم المجتمع كافة ، وهو من الأسباب الرئيسية التى من أجلها لم يكتب لما سمى بـ « النهضة » عندنا أن يثمر، ويؤتى أكله، ويشع على جميع قطاعات المجتمع ، إذ تصدت النهضة للهياكل السطحية، ولم تعمد إلى تغيير الأوضاع الباطنة العميقة الجذور .

وليس معنى ذلك أننا غير مطالبين بأى عمل فى المجال الثقافى ، ريثما تخرج مجتمعاتنا من التخلف . فإن ذلك يكون تنصلا من المسؤولية وإخلادا إلى التواكل . وبقدر

ما نرفض القول بعجز جوهرى كامن فى أحشاء اللغة العربية ، نأبى ترقب أى حل سحرى من وراء عملية الخروج من التخلف .

فالخروج من التخلف والنمو والتطور طريق شاقة طويلة ، ونضال شامل ، علينا فيه واجبات أكيدة ، عاجلة وآجلة نحو لغتنا وثقافتنا ومجتمعاتنا . ذلك أن النهضة عملية متضامنة الأوصال شاملة لكل القطاعات. وبناء ثقافة مّا إنما هو وجه من وجوه هذا النضال ، وضرب من الرهان ، ومغامرة تقتضى فحولة العزيمة إلى حد التعنت دون استكانة ولا رضى بالدون .

وأولى واجباتنا تجديد الروح والأساليب فى تثقيف النشء وذلك بأن تتجه العناية إلى تلقين لغة حية مرنة صالحة لأداء معان مضبوطة. ولابد لذلك من الإقلاع عن حشو الأدمغة بألفاظ وصيغ لاتدعو الحاجة إلى حفظها وكثيرا ما سبق حفظها تصور مدلولاتها ، وقليلا ما يعنى بضبط معانيها والتمييز بينها وبين مترادفاتها . على هذا النحو نتمكن من إعداد آلة طيعة تمتاز بما تمتاز به اللغات العصرية من سهولة التركيب ودقة التعبير ووضوح التبليغ . ذلك أن تعليم اللغة عند الأمم المتقدمة إنما هو ترويض للفكر على مسالك الوضوح والدقة والضبط .

ولاشك أن لمجمع اللغة العربية دورا هاما فى الحفاظ على اللغة ، فى أوسع معانى الحفاظ وأنبلها وأبعثها على الاعتزاز ، إذا نحن اعتبرنا الحفاظ لايقف عند مجرد الإبقاء ، بل يتعداه إلى ضمان الوسائل الكفيلة بأن تستعيد العربية مكانتها الحضارية .

وإنه لمن حقه المساهمة — وقد تصدى لذلك منذ تأسيسه — فى جعل العربية فى مستوى مقتضيات العصر فى كافة الميادين الحيوية .

ولئن كان من الطبيعى ، بالنسبة إلى المصطلحات الحديثة ، أن يجرب طرقا مختلفة لنقلها إلى العربية ، فقد وفق إلى السبيل المثلى حين أعرض عن ترجمة المفردات الغربية بصورة مبدئية دون مراعاة تأكد الحاجة إليها ، ووجه عنايته إلى ما يتوقف عليه التعليم أو تستوجبه البحوث العلمية والفنون الصناعية . ذلك أنه لافائدة ترجى من ، اصطلاحات لاتدعو الضرورة إلى استعمالها فورا ، فتبقى نسيًا منسيًا ، ولا تكون لها أى « جدوى » علميه ولا اجتماعية .

وفى صورة مراعاة الحاجة الماسة ، فإن النظر فيما قد يلكون شاع استعماله على ألسنة أهل الذكر خير من استنباط مفردات يعسر فرضها فى واقع الاستعمال . لذلك يحسن تشريك أهل الذكر من كل البلاد العربية حتى لاتستقر فى بعض البلاد ألفاظ تكون مجهولة فى غيرها .

أما فى خصوص سائر الأغراض العامة ، فمن حق المجتمع أن يشرف بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، على إعداد معجم يكون

أداة تثقيف عام ، لا تؤخذ الألفاظ فيه مفردات ميتة ، بل تضبط فيه مختلف وجوه استعمالها ، مبوبة ، ومعززة بشواهد مقتبسة من أهم المراجع القديمة والحديثة .

وبذلك يتسنى مراقبة تطور اللغة ،وضبط مقاصدها الجديدة وإصلاح ما تسرب إلى تراكيبها من فساد أو عجمة ، لا فى الصحافة فقط ، بل أحيانا على ألسنة خاصة المثقفين وفى كتابتهم ، وأحيانا كثيرة أيضا فى النصوص الرسمية التى هى من وثائق الدولة .

وكثيرا ما يعزى شيوع الخطأ واللحن إلى أن العربية معقدة من حيث قواعدها غامضة من حيث كتابتها . وصحيح أن لغتنا صعبة المراس فى نحوها وصرفها ، كما أن هجاءها لايدل دلالة واضحة على نطق ألفاظها وما ينتاب الكلم من أحوال داخل الجملة .

ولاشك أنه من المفيد ، لاسيما فى مراحل التعليم الأولى ، تلافى هذه الأنقاص حتى يسهل على المتعلمين حذفها ،واجتناب الرطانات التى تعلق باللسان ،ويصعب بعد إزالتها .

وقد اشتكى الأجانب من هذه العقبات التى تعترض سبيل من يريد تعلم العربية . وقد قيل عن الكتابة العربية إن قراءتها متوقفة على فهم المعنى ، بينما الشأن فى اللغات الأوربية أن تكون القراءة وسيلة إلى فهم المعنى ،وقال بعضهم أن العربية لغة نحاة فقهاء .

ولئن كانت هذه الملاحظات على جانب من الصحة ، رغم مافيها من مبالغة مقصودة، فإنه يمكن الرد عليها بأن كتابة اليابانية مثلا على جانب غير قليل من العسر والتعقيد ، ولم يمنع ذلك أبناءها من تحقيق ماهم عليه اليوم من جمع غريب بين متناقضين : المحافظة الشديدة على التراث والتقاليد ، والتقدم المذهل فى العلوم والفنون الصناعية والاقتصاد حتى إن بلدهم ليعتبر فى طليعة البلاد المتقدمة.

ولست أقصد من ذلك أنه لاحاجة بنا إلى تيسير اللغة ، بل قصدى أنه لاينبغى أن نحمّل اللغة تبعة ما نشكوه اليوم من وهن وتخلف فى الميدان الثقافى والحضارى .

ومثل هذه القضايا لاتحل باجتهادات فردية ، وليس لأى قطر أن يشترع فيها بمفرده ، وبمعزل عن بقية الأقطار ، وإلا انفصمت تلك اللحمة التى هى من أنفس مكاسب الثقافة العربية .

وإنه من حظ العربية أن كان لها هذا المجال الفسيح الذى يتمثل فى مجموعة كبيرة من الشعوب ،ولم يتهيأ مثله إلا لقلة من اللغات الحية .

على أنه ينبغى أن نصارح أنفسنا بأن كسب ثقافتنا اليوم من هذا المجال الفسيح لم يكن على قدر أهمية المجموعة البشرية المنتسبة إليها .

وأول سبب فى ذلك تفاوت هذه الشعوب فى النمو والطاقات الفكرية . فكان الحمل على كاهل عدد قليل . ومن الطبيعى أن يكون دور بعض الأقطار فى تغذية الثقافة أوسع مدى وأقوى فاعلية بحكم درجة نموها وأوضاعها التاريخية والاجتماعية .

ومن الطبيعى أن يكون دور مصر فى طليعة هذه الجهود الرامية إلى التقدم بالفكر العربى أشواطا نحو الوضوح والموضوعية والنفاذ إلى قضايا الإنسان الجوهرية، والسيطرة على ما به المعاش فى يوم الناس هذا .

غير أنه ، إلى جانب هذا السبب الأول المتمثل فى تفاوت الثقافات ، يقوم سبب ثان وهو سوء تنظيم العلاقات الثقافية بين مختلف البلاد العربية .

وحبذا لو وضع المجمع فى جدول أعماله النظر فى مشروع يهدف إلى إقامة « سوق ثقافية مشتركة » ، فيتقدم به إلى الحكومات المعينة لتتولى هى دراسة شروطه ومقتضياته ونتائجه فى المجالين الثقافى والاقتصادى .

فليس من شك أن لجميع الاقطار مغانم عاجلة ومصالح آجلة فى قيام علاقات تضبط بوضوح نظام المبادلات الثقافية بينها، على قاعدة تضافر الجهود بحسب الاشتراك فى المنافع .

وإذا ما تسنى لهذه السوق المشتركة أن تؤسس على مبدأ مساهمة كل قطر مساهمة فعلية ، وقابلة للنمو والتطور، فى كافة ميادين الفكر والفن والعلم ، وبالنسبة إلى كل عمليات الإنتاج والنقل والنشر ، فإن الثقافة العربية بذلك تستطيع أن تحقق قفزة عظيمة نحو اللحاق، بمستوى الثقافات الناهضة .

سيادة الرئيس :

حضرات السادة والسيدات .

إن مجمع اللغة العربية قام بأعمال جليلة ولا تزال العربية تنتظر منه جليل الخدمات وعظيم الجهود فى الذود عنها وتفجير طاقاتها. ويكفيه عزاءً أنه دوما محط الآمال وكعبة القصّاد بفضل ما اجتمع فى رحابه من كفاءات ممتازة ومتنوعة .

والله ولى التوفيق، وإليه نتجه بالحمد أولاً وآخرا .

فى الساعة الخامسة من مساء الخميس ٢٢ من ذى الحجة سنة ١٣٩٠ هـ الموافق ١٨ من فبراير سنة ١٩٧١ م اقام المجمع حفل تابين لفقيده المغفور له الأستاذ الشيخ محمد الفاضـــل ابن عاشور عضـــو المجمع من تونس ، الذى استأثرت به رحمة الله فى ١٩٧٠/٤/١٩ . وفيما يلى ما القى فى هذا الحفل :

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم الأستاذ الشيخ :

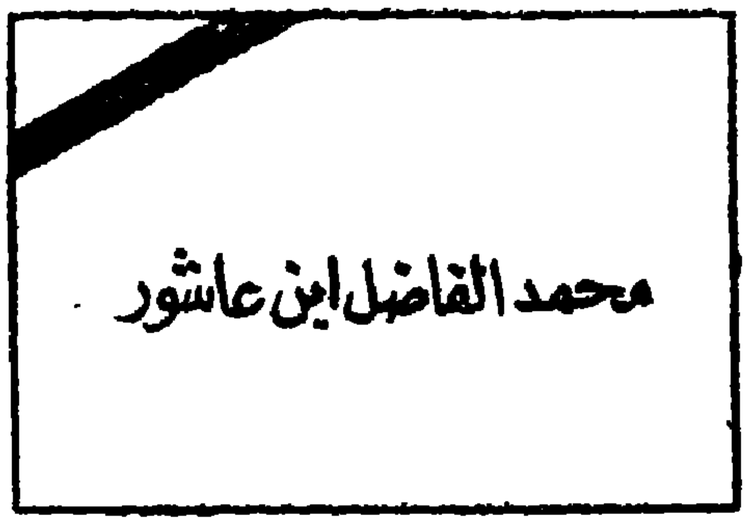

حضرات الزملاء .

سيداتى سادتى :

يعز علينا أن نجتمع الليلة لتأبين زميل كريم وعالم جليل هو المغفور له الأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور عضو المجمع من تونس الشقيقة .

لقد كانت وفاته مفاجأة أليمة لنا جميعا ، فقد كان رحمة الله بيننا فى المؤتمر الماضى متمتعا بأكمل صحة مملوءا حيوية ونشاطا ، شأنه فى كل مؤتمر فكانت وفاته صدمة شديدة الوقع على نفوسنا . فما من دورة من دورات المؤتمر إلا وجاء إلينا الفقيد حاملا ثروة علمية ضخمة أعدها من دراسته الواسعة وعلمه الغزير وثقافته العربية والغربية الممتازة .

على أننا إذ نبكى الفقيد الليلة لانبكى فيه عضوا مجمعيا نشيطا منتجا فحسب ، وإنما نبكى فيه رجلا عربيا أصيلا ، وعالما من أعلام القضاء ، ورائدا من رواد الفكر الإسلامى . ولعل من أعجب تصاريف القدر أن الفقيد طيب الله ثراه وقف هنا — وفى هذه القاعة نفسها — منذ زمن قريب يؤبن زميله وصديقه العالم الجليل المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، يبكى فيه علمه وخلقه. وما كان أحد يدرى أنه هو نفسه سيصبح مرثيا بعد أن كان راثيا ، ومبكيا عليه بعد أن كان باكيا . ولكن ما حيلتنا فى قضاء الله الذى لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه . تلك هى طبيعة الحياة ، ما يكاد يرى فيها الإنسان مخبرا حتى يرى خبرا من الأخبار . رحم الله الفقيد وأجزل مثوبته، وأسكنه فسيح جناته .

• • كلمة الدكتور ابراهيم مدكور :

سيدى الرئيس ، سادتى

نودع اليوم شيخا جليلا ، وزميلا كريما اختطف منا على عجل ، وحرمنا من علمه وفضله ، ونحن أحوج مانكون إليه .

والموت نقاد على كفـــه
جواهر يختار منها الجيـاد

نودع الفاضل ابن عاشور ، وقد كان فاضلا حقا ، سماه كذلك جده لأبيه ، وكأنما كان يكتنه الحجب . فجاء ابن ابنه فاضلا فى زيه وسمته ، يملأ العين جلالا ووقارا ، والقلب تقديرا واحتراما ، وفاضلافى قوله وعمله ، حديثه جد لا هزل فيه ، ومسلكه قدوة حسنة ، أدب جم ، وتواضع بالغ ، وعطف ورأفة ، وبذل للنفس والمال فى سبيل الخير والناس .

ونودع عالما كبيرا ، وإماما من أئمة الأدب واللغة والفقه والتشريع ، ورائدا من رواد الإصلاح والتجديد . وكم نعمنا نحن هنا بأدبه الرقيق ، وبحثه العميق ، ودرسه الواسع . لايعنى إلا بدقائق الأمور ، ولايعرض إلا للمعضلات ، كان حجة فى تراثنا الإسلامى جميعه ، وبخاصة ماخفى منه من أخبار المغرب وبلاد الأندلس ، ومحيطا بتيار الثقافة الغربية وما انتهت إليه من علم وفلسفة ؛ فاستكمل وسائل الدعوة إلى الإصلاح والتجديد ، واضطلع بها فى إيمان ويقين ، وجد وإخلاص ، حريصا على أن يربط الحاضر بالماضى ، وأن يلائم بين الجديد والقديم .

ومجال القول فيه ذو سعة ، وفى سيرته عبرة ، وفى علمه نفع كبير . وحسبنا الآن أن نؤرخ له فى اختصار ، وأن نعرض لشئ من جوانب نشاطه وثقافته الواسعة .

* * *

ولد الفقيد الكريم فى الثانى من شوال عام١٣٢٧هـ، الموافق١٠من أكتوبرعام١٩٠٩م ونشأ فى بيت علم وفضل ، وتتلمذ لوالده ، وهو إمام فى علوم الدين واللغة ، قبل أن يتتلمذ لمعلم آخر . تتلمذ له فى صباه ، فبدأ تحت إشرافه فى حفظ القرآن ولما يجاوز الثالثة وفى تعلم القراءة فى بعض كتب المطالعة المصرية،وحفظ بعض المتون كالأجرومية والألفية وهو فى السادسة . ووجه فى العاشرة إلى تعلم اللغة الفرنسية على أيدى معلمين خصوصيين فى منزله . وكأنما أريد به أن تقصر طفولته على بيته وأسرته ، فلم يدخل المكتب الابتدائى ، ولم يعرف من الأطفال إلا أبناء الأقارب . وفى الثالثة عشرة من عمره بدأ يدرس القراءات والنحو والفقه والتوحيد. وفى العام التالى التحق بجامع الزيتونة ، وبقى

به إلى أن تخرج فيه ، ومنذ ذلك لم تنقطع صلته به ، تولى التدريس به فى سن مبكرة ، وبقى يتدرج طبقة بعد طبقة إلى أن أصبح أستاذا وقد جاوز الأربعين بقليل ، ثم عميدا للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين عام ١٩٦١ ، ولكنه لم يبعد قط عن والده وأستاذه الأول ، عاش إلى جانبه طول حياته ، واستمع إلى دروسه فى الأدب والتفسير والحديث بجامع الزيتونة مدة خمس سنين ، ودرج طول حياته على أن يقرأ بين يديه كل ليلة من ليالى رمضان بعد صلاة التراويح قدرا من كتب الحديث والرجال واللغة ، كالبخارى ومسلم ، والإصابة ، والنهاية ، ولسان العرب . وقد نعمت بلقاء الأب والابن ، وأشهد أنى لم أر مثله ابنا هو سر أبيه وصورة كاملة له .

وإلى جانب هذه البيئة الخاصة تفتحت أمامه آفاق شتى ، واتصل بالحركات الثقافية فى العالم الإسلامى عامة ، وفى شمال إفريقية خاصة ، ولم يفته أن ينهل من حياض الثقافة الغربية . رحل إلى فرنسا لأول مرة وهو فى سن السابعة عشرة ، وكان لهذه الرحلة أثر كبير فى نفسه ، ثم توالت رحلاته إلى أوربا وبعض بلاد الشرق الأدنى . واشترك فى عدد غير قليل من الندوات والمؤتمرات ، ودعى للتدريس فى كثير من المعاهد والجامعات وأسهم فى عدة هيئات ، كالرابطة الإسلامية بمكة ، والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجمعية الجامعات الإسلامية بفاس . واختير عضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ ، وعضوا بمجمع البحوث الإسلامية فى العام التالى .

وللقاهرة فى نفسه منزلة خاصة ، يحن إليها عن بعد ، ويطيب له المقام فيها عن قرب . يتتبع نشاطها الثقافى ، ويجد فى لقاءاتها الفكرية متاعا لايعادله متاع . ولا أزال أذكره ، وهو واقف بيننا فى العام الماضى يقول : «حياك الله يا أرض الكنانة ، وبارك لك فى هذا الجارى من صعيدك إلى شطك ، يتدفق خيرا ، ويترقرق ريا ، ويتألق نورا ، ويترفع طهرا وصفاء . وهل يجد أليف عهدك — يامصر — خيرا من نيلك السعيد ، يحييك به ، وهو الذى تحين به أنت كل وافد عليك ، كما كان آل جفنة ، فيما شهد حسان ، يسقون قاصديهم : بردى يصفق بالرحيق السلسل . فهذه تحيتك — يامصر — تعود إليك ، لاتجد أحسن منها حتى نحييك بها » .

اضطلع الفاضل بالإفتاء والقضاء ، إلى جانب عمله فى الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ، وكان التدريس أحب إلى نفسه . حاضر فى القرية كما حاضر فى المدينة وخطب فى العامة كما خطب فى الخاصة ، وكان محببا إلى طلبته ومستمعيه ، يحرصون على حضور درسه ، ويسارعون إلى استماع خطبه ومحاضراته . وجل مانشر من مؤلفاته ، إنما هو مجموعة دروس ومحاضرات ألقاها ، أو بحوث أعدها لندوة أو مؤتمر . فدعى عام ١٩٥٥ إلى معهد الدراسات العربية العليا

بالقاهرة ، وألقى سلسلة من المحاضرات أخرجت فى كتاب كبير تحت عنوان : « الحركة الأدبية والفكرية بتونس » ونشر له مجمع البحوث الإسلامية أخيرا بحثا قيما : « فى التفسير ورجاله » . وله فى مجلة مجمعكم ومجموعات محاضراته بحوث لها وزنها وقيمتها ولو تخفف من بعض أعبائه ومُدّ فى أجله لغذى المكتبة العربية بغذاء أوفر . وله دراسات بالفرنسية قدمها فى بعض المؤتمرات الدولية . ويغلب على الظن أن له مخلفات لم تنشر بعد ، ونعتقد أن أصدقاءه وتلاميذه لن يترددوا فى إخراجها إلى النور ، كى يفيد منها القراء والباحثون .

* * *

هذه فى إيجاز هى حياة الفقيد التى كانت ملأى بالنشاط والعمل ، غنية على قصرها بالدرس والبحث . ونود أن نقف عند ثلاثة فقط من جوانبها :

(١) الفاضل ابن عاشور مؤرخ الفكر الإسلامى :

فى وسعنا أن نقرر أن تاريخ الدراسات الإسلامية على اختلافها لم ينل بعد حظه ، ولم يكتب كتابة دقيقة مستوعبة ؛ فلم يكشف عن أصولها ، ولم تتضح مراحل نموها وتطورها ولم تعرف آثارها فى الحركات الفكرية الأخرى ، ولم تبين أسباب جمودها وتخلفها . ولاتزال فى ذلك كله عالة بوجه خاص على ابن خلدون فى « مقدمته » ، وقنعنا فى الغالب بالصورة الأخيرة التى وصلت إلينا . وقد أحس بهذا النقص فقيدنا ، كما أحس به معاصرون آخرون ، ومكنته ثقافته الواسعة من تدارك شئ منه . ومن أوضح ماحاوله فى هذا الباب مؤلفه الذى أشرنا إليه من قبل « فى التفسير ورجاله » والذى ظهر بعد موته بقليل ، ويقع فى نحو ١٨٠ صفحة من القطع الصغير .

ويعالج هذا المؤلف تاريخ علم التفسير منذ نشأته إلى اليوم ، من ابن عباس إلى محمد عبده و « تفسير المنار » ، ويوضح مناهج التفسير المختلفة من أخذ بالمأثور ، أو بالنظر والمعقول ، أو من جمع بينهما ، ويربط التفسير بموضوع إعجاز القرآن الذى كان له شأن فى نمو هذا العلم وتنوع أبحاثه وطرائقه ، وفسر هذا الإعجاز على صور شتى ، فقيل بالإعجاز الغيبى ، والإعجاز العلمى . والإعجاز البلاغى ، ويعرف المؤلف بكبار المفسرين وأهم كتبهم فى المراحل المتلاحقة ، ويقف طويلا عند بعض الأعلام ، كالطبرى والزمخشرى والرازى والبيضاوى بين القدامى ، وكالألوسى ومحمد عبده بين المحدثين . وله فى كل هذا ملاحظات دقيقة ومقارنات شائقة .

ويمكن أن يضاف إلى هذا بحثان آخران لايخلوان — على قصرهما — من جدة وطرافة ، وهما : أولا : « الاجتهاد ، ماضيه وحاضره » وقد ألقى فى المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية ، ويستعرض فيه باختصار الأدوار

التى مر بها الاجتهاد والتشريع الإسلامى منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . فيشير إلى كبار المجتهدين من الصحابة والتابعين ، وإلى نشأة المذاهب الفقهية الكبرى ويعرض لاختلاف المجتهدين ، باختلاف طبائعهم وميولهم ، ومدى تفهمهم للنصوص من كتاب أو سنة ، وتباين العادات والتقاليد من بلد إلى آخر . وقد عرف من قديم تسامح ابن عباس وتشدد عبد الله بن عمر ، واختلاف تشريع المدينة عن تشريع العراق والشام ومصر . ويلاحظ فقيدنا بحق أن المشرعين من الصحابة والتابعين ورجال القرنين الثانى والثالث للهجرة كانوا أكثر منا طلاقة وحرية فى قياس الأشباه والنظائر واستنباط الأحكام الشرعية . ويوم أن استكملت المدارس الفقهية بحوثها ، واستقرت أصولها وفروعها ؛ قنع أتباع كل مدرسة بالأخذ عنها ، وضاق منذ القرن الرابع مجال الاجتهاد والاستنباط فى التشريع ، وذهب إمام الحرمين فى القرن الخامس إلى أن ليس ثمة موضوع لم يعرض له الفقهاء السابقون . وتنوسى الاجتهاد أو كاد ينسى ، واستمسك العامة والخاصة بالتقليد ، الأمر الذى لم يرق ابن تيمية ولا تلميذه ابن قيم الجوزية فى القرن الثامن ، ورفضا معا تقليد المذاهب الأربعة ، ودعوا إلى الرجوع إلى ماكان عليه السلف . وظهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بوادر دعوة إلى شئ من التحرر على أيدى الدهلوى فى الهند والشوكانى فى اليمن ، وعززها الأستاذ الإمام فى القرن الرابع عشر ، وترتبت عليها اتجاهات عملية تختار من المذاهب السابقة أنسبها للظروف الحاضرة . ولاشك فى أن العالم الإسلامى كان عرضة منذ القرن الماضى لاعتبارات وأوضاع جديدة لم يعرفها السلف ، ولابد من مواجهتها بتشريع واجتهاد طليق على نحو ماصنع الأوائل ولم يكن الاجتهاد فى التشريع منذ بدأ من عمل العامة والدهماء ، وإنما اضطلع به الخاصة ، بل خاصة الخاصة ، وحبذا لو تكوّن — كما يرى الأستاذ الكبير الطاهر ابن عاشور والد الفقيد — مجلس إسلامى يضم كبار فقهاء المسلمين فى العالم أجمع لمواجهة التطورات الحديثة ، وما أشبه هذا المجلس بمجمع البحوث الإسلامية فى مصر .

وأما البحث الثانى فيدور حول « السند التونسى فى متن اللغة » ، وقد نشر فى الجزء التاسع عشر من مجلة المجمع — وفيه عرض شامل للدراسات اللغوية وشيوخها فى الأندلس وشمال إفريقية من القرن الرابع إلى آخر القرن الثامن الهجرى ، ثم انتقل السند إلى مصر ، وتلقاه ابن حجر والسيوطى والمرتضى الزبيدى . ويشهد هذا البحث مرة أخرى على مدى تمكن الفقيد من تاريخ الثقافة العربية فى نواحيها المختلفة ، وعلى مدى معرفته لكبار الرجال ، إن فى الفقه ، أو فى الأدب أو فى اللغة .

(٢) الفاضل ابن عاشور المجمعى :

لاترجع صلة فقيدنا بمجمع اللغة العربية إلى عام ١٩٦١ فحسب ، يوم أن اختير لعضويته العاملة ، بل تصعد إلى أبعد من ذلك —

فقد كان يتتبع نشاطه منذ إنشائه ، وكان يعتز باشتراك عضوين عاملين فيه كانا من أحب الناس إليه ، وهما الخضر حسين ، وحسن حسنى عبد الوهاب ، واشتراك والده أطال الله بقاءه ، فى بحوثه وأعماله بالمراسلة .

وكان يعتز أيضا بشيوخ المجمع الآخرين من عرب ومصريين ، ويقدر ما انتهوا إليه من اقتراحات وقرارات ترمى إلى تطويع اللغة لحاجات العصر ومقتضيات العلم والحضارة الحديثة . كان يؤمن بهذه الرسالة إيمانا جازما قبل أن يدخل المجمع ، ويوم أن دخله لم يتردد فى أن يسهم فيها بكل ماوسعه من علم وخبرة . ولقد قضى معنا عشر سنوات كاملة كلها خصب وإنتاج ، ولم يتخلف عن مؤتمر من مؤتمراتنا إلا لضرورة قاهرة . وأخذ الكلمة فى افتتاح مؤتمر الدورة الثلاثين والدورة السادسة والثلاثين ، وأبن فقيد تونس الكبير الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الدورة الخامسة والثلاثين . وغذى المجلة ببحث قيم سبق أن أشرنا إليه ، وقدم للمؤتمر بحثين هامين فى الدورة الثلاثين والدورة الرابعة والثلاثين ، أولهما : « تحرير أفعل التفضيل من ربقة قياس نحوى فاسد » ، والثانى : « المصطلح الفقهى فى المذهب المالكى » . ولن نقف عند ملاحظاته الدقيقة وتعليقاته النافعة على بحوث وموضاعات عرضت فى المؤتمرات الماضية ، ويكفينا أن ننوّه بهاتين الدراستين .

فأما الدراسة الأولى فوليدة تجربة لرجل عاش مع القواعد النحوية والصرفية زمنا غير قصير ، ولمس مافيها من أقيسة جاوزت الحد ، واستنتاجات لم تبن على تحر تام للاستعمال القديم ، لاسيما لدى البصريين المحدثين . ورأى أن فيها « مجالا للنظر ، وأن من الخير أن نقللها ، وأن نتحرر من وثاقها ما أمكن توسيعا للغة ، وتيسيرا على طلابها » . ومن أوضح الأمثلة على ذلك أفعل التفضيل وهو من التصاريف التى تتجلى فيها عبقرية العربية ، ويشيع استعماله اليوم لتقدير النسب وضبط القيم ، وتفضيل صفة أو أمر على آخر . ولكن النحاة ضيقوا أوزانه ، وأثقلوه بشروط كثيرة تعقد استعماله . وفى بحث جاد عميق حاول الفاضل ابن عاشور أن يفك هذه القيود ، وأن يبين مافى هذه الشروط من تزيد وتعسف . وقد استقبل المجمعيون بحثه بحماس وتقدير بالغين ، وقضت لجنة الأصول بالمجمع فى نظره زمنا طويلا ، وعقبت عليه بدراسات أخرى متعددة . وانتهت إلى الأخذ بكثير مما قال به من تيسير أمر هذه الصيغة ، وتمكين الناس من استعمالها فى طلاقة . وعنده أن باب الاجتهاد مفتوح فى النحو كما هو مفتوح فى التشريع ، وعلينا أن نيسر قواعده ، للدراسين والباحثين ، لأن اللغة ملك أبناء العروبة جميعا ، ونحن نريد بهم أن ينطقوها ويكتبوها فى يسر . وقد كان الفقيد ينوى أن يتقدم إلى المجمع بوسائل لتعلم النحو بطريقة تضمن تطهير العربية من اللحن ، ولاشك فى أن هذا أملنا جميعا وغايتنا ، المنشودة .

وأما الدراسة الثانية فبيان لنشأة المصطلح الفقهى فى الإسلام ، وأنه ضرب من الوضع أدى إلى تكوين مجموعات من الحقائق العرفية التى تتميز من الحقائق اللغوية — وتعرض الفقيد لتاريخ المصطلح الفقهى فى المذهب المالكى ، مبينا أنه نشأ فى القرن الثانى على أيدى مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ووريث الحركة الفقهية النشيطة بالمدينة فى عهد الصحابة والتابعين ؛ وقد عرف بمتانة السليقة وقوة الارتجال . وفى « الموطأ » قدر لا بأس به من هذه المصطلحات توارثه تلاميذ مالك من بعده ، وغذوه وصقلوه . ثم أخذ المذهب المالكى ينتشر فى أقطار مختلفة ، مما أدى إلى اتساع لغة التعبير الفقهى وتنوعها وفى القرن الثالث وضع سحنون « المدونة » التى تشتمل على أربعين ألف مسألة ، وتعد الموسوعة الأولى فى الفقه المالكى ، فزادت المصطلح وضوحا وضبطا ودقة . وجاء أبو زيد القيروانى ، فوضع فى القرن الرابع عدة كتب ساعدت على الضبط والتحديد ، ولخص « المدونة » ، ففتح باب الملخصات التى شاعت فى القرون التالية . ومن أهمها ما صنعه فقهاء مصر المالكيون كابن الحاجب والقرافى فى القرن السابع ، وخليل فى القرن الثامن : ولم يقنع هؤلاء الفقهاء بوضع المصطلحات ، بل عرفوها وجهدوا ماوسعهم فى ضبط هذه التعريفات ، وانضم إلى هذا كتب القضاء والأحكام ، والتوثيق والفتوى ، التى طبقت المصطلحات النظرية تطبيقا عمليا .

وتوافر بهذا ثروة لغوية فقهية أفاد منها أساتذة الحقوق وعلماء القانون فى العصر الحاضر ؛ وعليها عولوا فيما ترجموا وألفوا . ويذهب الفاضل إلى أن للفقه المالكى خاصة شأنا فيما ترجم من كتب القانون من الفرنسية وإليها بشمال إفريقية فى المائة سنة الأخيرة .

ولا نزاع فى أن الفقه كان أسبق الدراسات الإسلامية إلى تكوين لغته الخاصة ، وعنها أخذت دراسات إسلامية أخرى نشأت معه أو ظهرت بعده ، وقد لوحظ أن فى النحو والمنطق مثلا ألفاظا يمكن ردها إلى المصطلح الفقهى . وحبذا لو عولج على هذا النحو المصطلح الفقهى فى المذاهب الأخرى ، وجمع فى قوائم ثابتة ، وتتبع تطوره فى المراحل المتعاقبة . ففى ذلك ما يعين على ربط المصطلحات الفقهية بعضها ببعض ، وما يمكن من إحياء ما ينبغى إحياؤه منها .

(٣) الفاضل ابن عاشور أحد رواد الإصلاح والتجديد :

وختاما لا بد لنا أن نقول كلمة عن الفاضل ابن عاشور المصلح ، ودعوة الإصلاح فى تونس قديمة العهد ؛ تصعد إلى أخريات القرن الماضى ، وتحذو حذو حركات النهوض فى العالم الإسلامى ، وفى مصر خاصة ، تتصل بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وجمعية العروة الوثقى ، وكان لهذه الجمعية فرع فى تونس ، يتلقى صحيفتها ويروج دعوتها وعلى رأسه الشيخ محمد السنوسى الذى طوف

بالبلاد الإسلامية ، واتصل بكبار مفكريها ، وعد عنوانا لعصره فى الدعوة إلى النهوض والتجديد ، وكان على علاقة مستمرة بالأستاذ الإمام . ويوم أن عطلت جريدة العروة الوثقى سافر محمد عبده إلى تونس عام ١٨٨٤ وأقام نحو أربعين يوما لقى فيها أعضاء العروة الوثقى من التونسيين ، وتبادل الحديث معهم فى شئون الإصلاح الدينى والاجتماعى ، وكان لزيارته أثر كبير ، وما إن سافر إلى بيروت حتى أخذت سلطات الاحتلال تنكل بأنصاره ، وبخاصة السنوسى .

وقد تهدأ دعوات الإصلاح أحيانا لكى تتفادى العاطفة ، ثم لا تلبث أن تستأنف نشاطها . وفى عام ١٨٩٦ أنشئت الجمعية الخلدونية على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام: لنشر العلوم العصرية باللغة العربية من جغرافيا وتاريخ واقتصاد ، وعلوم طبيعية ورياضية . وأقبل عليها طلاب الزيتونة ، ورغبوا فى أن يمتد هذا التعليم إلى معهدهم ، واستجاب المسئولون لذلك . وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد ، متأسية بما كان يجرى فى مصر على أيدى محمد عبده وما كان ينشر فى « مجلة المنار » . وغذاها فى أول هذا القرن شاب من طلبة الزيتونة والخلدونية ، غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم ، هو عبد العزيز الثعالبي . عاش فى مصر زمنا ، ثم عاد إلى تونس يردد أفكار جمال الدين ومحمد عبده ، ويدعو إلى فهم الدين والوجود . وفى هذا كله ما دفع محمد عبده إلى أن يزور تونس مرة أخرى فى عام ١٩٠٣ ، قبل وفاته بعامين ، واهتزت لزيارته أندية العلم والأدب ، والتف حوله رجال الإصلاح ، ومن بينهم شاب فى الرابعة والعشرين هو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والد الفقيد ، أطال الله بقاءه ، وكان من أبرز مدرسى الزيتونة ، شبابا وذكاء ، وعلما وأدبا ، وعده الأستاذ الإمام سفير دعوته فى الزيتونة .

فى هذا الجو نشأ الفاضل ابن عاشور ، وربى فى بيت من بيوت شيوخ الإسلام ودعاة الإصلاح ، وكان طبيعيا أن يسير فى ركب أبيه . وفى سن العشرين أخذ يتصل بحركات الإصلاح ، فانغمس فى العمل بالجمعية الخيرية ، وارتبط بالجمعية الخلدونية ، وبدأ يحاضر فيها إلى جانب الشيوخ الكبار . واتصل أيضا بجمعية قدماء الصادقية ، وهى دعامة جديدة من دعائم الإصلاح فى تونس ، ربى أعضاؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم ما لبثوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، وتلاقوا مع الخلدونيين فى الدعوة إلى الإصلاح . ولقد كان الفاضل مؤمنا بالحضارة الإسلامية الإيمان كله ، يراها حضارة تعتد بالإنسان كل الاعتداد ، وتقوم على دعامة روحية دون أن تهمل شأن المادة . وكان ملما إلماما دقيقا بأسرارها ، ومتفتحا لما فى الحضارة الغربية من جوانب نافعة . وكان همه أن يلائم بين هذين الطرفين وأن يبين أن تعاليم الإسلام لا تتعارض فى شىء مع النهوض الجاد والتقدم السليم . نفذ إلى روح الإسلام ، وأدرك فى وضوح

رسالته الخالدة ، وأخذ ينشرها بلغة العصر ، فقرب المسافة بين القديم والجديد ، وربط الماضى بالحاضر . وحبب إلى الشباب الذين رأوا فى درسه ما تطمئن إليه قلوبهم ، وما تدعو اليه حاجة النهوض والتقدم .

أخذ بما ارتآه الأستاذ الإمام من أن النهوض الحق هو ما قام على دعائم ثقافية سليمة ، فعدل مناهج الدراسة بكلية الشريعة وأصول الدين . وما إن تولى رياسة الجمعية الخلدونية عام ١٩٤٥ ، حتى أنشأ بها معهد البحوث الإسلامية ، ونظم مؤتمر الثقافة الإسلامية عام ١٩٤٩ ، وكان مضرب المثل فى درسه وبحثه ، فى حديثه وكتابته ، لاتكاد تعرض مشكلة من مشاكل الحضارة إلا واجهها مواجهة تامة : وقدم لها الحلول السليمة ، وجهد ما وسعه فى أن يوفق بين تعاليم الدين ومقتضيات الفكر الحديث . وكان يرى أن الثقافة الإسلامية إن فهمت على وجهها لم يبق محل للاختلاف عليها ، وهى خير وسيلة لجمع كلمة المسلمين وضم شملهم . وقد أنفق جهدا غير قليل فى الدعوة إلى الإخاء والوحدة . وحدة المغرب الكبير ، ووحدة العالم العربى ، بل وحدة المسلمين عامة .

* * *

سيداتى ، سادتى

هذا هو الفاضل ابن عاشور الإنسان الذى أسر القلوب بإنسانيته ، والمسلم الصادق الذى وقف حياته على خدمة الدين ونصرته ، والفقيه الضليع فى فقهه ، واللغوى الحجة فى لغته . فقدناه ، ففقدنا مرشدا حكيما ، عرف كيف يحبب الناس فى دعوته . فقدناه ، ففقدنا طرازا من دعاة النهوض والتجديد الذين ليس من اليسير أن نجد من يخلفهم أو يحل محلهم . بكته تونس ، وبكته معها مصر أحر البكاء ، وبكاه كل من عرفه من أبناء العروبة والإسلام . تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته ، وألهمنا وآله الصبر والسلوان .

• • قصيدة للأستاذ عزيز أباظة :

ردَع الردى . وهو القوىُّ الرادعُ ... المجمعىُّ الثَّبت أدركه الردَى

للراحلين ، مآثر وصنائعُ ... فى حين يُرجى منه نفعٌ جامعُ

حَتْمٌ على ثَبَجَ الحياة يزيلها ... حامَى عن الفصحى ، وذادَ بمنطق

وتزيلها هى ، وهى ذكرٌ ذائعُ ... كالصبح لايَقْوى عليه مُقارعُ

مامات من خلفاؤه حسناته ... وإذا احتبَى ذو الرأى بالإيمان لم

تزكو عوارفها ، وفضلٌ شائعُ ... يُرْهبه مخشىُّ البوادر دارعُ

لهفى على الإنسان . عمرٌ ضيقٌ ... يا فاضل الفضلاء يابن عشيرة

ومدار طاقته الجليلُ الواسعُ ... زان الحِجَى فيها القنوتُ الخاشعُ

مُسْتخلَف هو فى الزمان لِربِّه ... آباؤك المرضىُّ عن آلائهـــم

وبقاؤه فيه السرابُ الخادعُ ... للسالكين وسائلٌ وذرائعُ

تُرجَى بدائه عَقْله فإذا ذكا ... للعلم بين صدورهم حَرم وفى

إشراقها ، دمَم الحِمامُ الفاجعُ ... أفنائهم للصالحات مطالـــعُ

سبعونه إن عاشها وهى المدى ... خلَّفت مَجْمعك الحزين وأنت فى

تمضى كما ينجابُ برقٌ لامعُ ... أعلامه العلَم الأشَمُّ الفـــارعُ

لو أنصِف الإنسان أُرْجِئَ يومُه ... فى كل معضلة تهيج به ومبـ

فترفٌ عنه روائعُ وبدائعُ ... ـهمة تناشبه فقولك قاطعُ

لكنها سُنَن الوجود ؛ جمادُه ... باق ، وللحى الحِمام مُسارعُ

* * *

تُدلى به مستوثقاً متواضعا ... الأزهر المعمور توأمها . وعن

لله ذاك العالمُ المتواضعُ ... صحنيهما انفجر الضياءُ الساطعُ

وإذا خطبتَ فمِصْقَعٌ مترسِّلٌ ... حِصنان للإسلام ، ذاك بنوره

لَهجتْ به فى المِدْرهين مصاقعُ ... غازٍ ، وهذا مانع ومدافــعُ

واذا احتشدتَ مُحاضرا أو شارحا ... بكياك بالدمع الغزير وربما

انهلَّ عنك العارضُ المتدافعُ ... سالت بحبات القلوب مدامعُ

وإذا سكتَّ فرب صمتٍ فاصل

فيه الخطاب . وللسكوت مواضعُ

* * * *

وجمعت بين العلم والآداب فى ... يافاضل الفضلاء قد بارحتنا

نَسَق ، وجَمْعهما العسير الشاسعُ ... وبقلبك الريَّان همٌّ قابعُ

عِلْم ، وما العلماءُ إلا مِشْعل ... مما أصاب العرب فى أقــدارهم

للخير هاد ، للضلالة قاشِعُ ... هامٌ « منكَّسة » وخدٌّ ضارعُ

أدَب ، وما الأُدباءُ إلا عَيْلَمٌ ... ليست مصارعنا نكال عدونا

فيه لألوان الجمال مَشــارعُ ... سَقَطاتنا حُفَر لنــا ومصارع

لَهْفى على « الزيتونة العظمى » التى ... قُل للعروبة مغربًا ومشــارقا

ثكلتك حين مكانُها بك تالعُ ... ما ناهضٌ يقظٌ كمن هو هاجعُ

كالروض جانبه الولىُّ الهامعُ ... نهج التغلب ليس رَهْوا ؛ إنه

والأُمِّ فارقها الحفىُّ النافــعُ ... للسالكيه زلازلٌ وزعــازعُ

إن زُلْتَ عنها فالأُلى زاملت من ... ما بالوعيد ولا النشيد ولا الشعا

أقطابها عُمُدٌ لها ومراجعُ ... رات الزوائف يُستردُّ الضائعُ

كلا ولا يجدى ابتهالُ ظاهر وانتابت الأَدبَ المقدَّس محنة

يزجيه دمعاً ساجدٌ أو راكعُ فإذا خمائله الوسام دوامـــعُ

ندعو لأدْنَى الحقِّ يأْسُو جرحنا ومسممين بكل ضغن واغـــر

دولا ، وفينا الحق أعسر ظالع طُويت عليه سَرائر وأضالـعُ

ونهيب بالدنيا لتدعمَ حقنا ومَذاهب ، رجْسُ الوجود وشَرُّه

وحقوق أكثرنا الغداةَ ضوائع متراكبٌ فى روحها متدافـعُ

والحق وهو الحق ليس بقائم ثاروا على المأْثور مما أبدعتْ

مالم يسانده الجهادُ القامعُ حِقَبٌ لعُلْوىِّ البيان جوامـعُ

ما وَحْدة بين الصفوف مفيدة قالوا : نجدِّد ،قلت : فى عبث وما

حين الدخائل للخلاف نوازعُ العبث المهوَّس نافع أو شافعُ

والكَرْه إن ندخله فى عَدد وفى فالقصة انتُزعت بَدَائهُ عقلهـا

عُدَد ولم نُخْلص ، فجهدٌ خائعُ منها ، فسِيقت وهى هَذْرخالعُ

أقسمت إن صفت النفوس وسالمت والشِّعر رُوِّعَ أيْكُه وكأنمـــا

ذلَّ المواثبُ واستكان الطامعُ زحمت بلابله عليه ضفادعُ

قدآن أن نشد «الأنا» فإذا امَّحتْ والرسم أرعن ، كل خطرة ريشة

كشف الظلام لنا النهارُ الماتعُ هاذٍ يُمجمج وَهْمَه ويتـــابعُ

* * * * وهوَى بموسيقى الجمال وسحرها

يافاضل الفضلاء إن كرائم الـ صخَبٌ إذا ينقضُّ قلتَ : قعاقعُ

ـقم استبد بها العداءُ الجائعُ الخطب فيك تموج فى أسدافه

فسدت موازين الشباب فلم نعد لغة ألحَّ خصومُها وتشايعـــوا

ندرى ، أيافعةٌ مشت أم يافعُ

زحفوا على أقداسها وتراثها ... وعلى ثراك الطهر كم خلب الرُّبى

ولهم من الإحن العِمَاق دوافعُ ... شادٍ ؛ وكم هز الخمائلَ ساجعُ

قالوا : لقد عجَز الفصيح فبات لا ... يا تونس الخضراء أمسك إن يذق

يقوى على استيعاب ماهو واقعُ ... عنتا ؛ فحاضرك الكريم الرائعُ

كذَبوا على عِلم بأن كذبوا فما ... يهنيك أنك أمُّ شعب ناهض

أمُّ اللغى إلا الخضم الواسعُ ... حـــر يسدده رئيسٌ بارعُ

وسعت حضارةَ كل عصر فاحتوى ... قل «للحبيب أبى رقيبة» : دمت قوّ

آفاقَ فكرته الفصيحُ الناصعُ ... امَ البلاد لك المقـام الفارعُ

ولقد نظرتَ إلى جديدهم الذى ... فاسلم وأتمم مابنيت موفّقاً

صُكَّت به فى المشرقين مسامعُ ... والله داعمُ ما بنيت ورافعُ

فإذا بأكثره المهيض جناحه ... * * * *

إما المسِفُّ أو الهُذاءُ الصادعُ ... يافاضل الفضلا إلى أن نلتقى

ولعل سائغه هو المنشقُّ فى ... يهفو إليك وفاؤنا ويطالـعُ

قصد ، ومن بعض الأصالة نابعُ ... هذا مُصابك إنْ ألمَّ بتونس

لن تُرزأ الفصحى ، فحافظها على ... فأمضَّ ، فهو على العروبة واقعُ

شفة الدنا الذِّكْرُ الحكيم الجامعُ ... ليس المعزَّى والدٌ لك كابرٌ

* * * * ... إن المعزى فيك عصر جازعُ

يا تونس الخضراء عشت منيفةً ... فاذهب فإن العلم والأدب الذى

للسؤدد المكسوب فيك مَراتعُ ... أصَّلْتَ ؛ يُتْمُهما بفقدك لاذعُ

ولكل باذخ عزة موسومة ... واذهب كما مال الهداة فإن همو

بالعتق فيك مَشارفٌ ومطَالـعُ ... ذهبوا ؛ فنورهم المقيم الساطعُ

• • كلمة الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة :

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

معالى الرئيس الجليل

سعادة الأمين العام المبجل

حضرات السادة العلماء الكرام أعضاء المجمع الموقر

سيداتى سادتى

فى هذه المناسبة الشاجية الجليلة التى يتناول فيها القول علمان من أعلام المجمع وعميدان من عمداء الفكر واللغة ، ما كان يحسن بى وأنا السكيت أن أقتحم هذا الميدان فأشارك بالكلام أو أساجل الفرسان . هذا إلى أن الأشجان الثائرة والأحزان المتجددة فى النفس تعوق مثلى عن القول فى هذا الموقف ، غير أن اقتراح العالمين الجليلين ، والأستاذين الكريمين : الدكتور إبراهيم مدكور ، والشيخ محمد بهجة الأثرى ، اللذين اعتبرانى من أسرة الفقيد لما يعلمان من صلتى بالمغفور له شيخى وأستاذى سيدى محمد الفاضل ابن عاشور قدس الله ثراه — حملنى على استجابة الطلبة فى الإسهام بكلمة فى هذا الحفل الخاشع . واعتقادى أنها لا تفى بحق الراحل الكريم وإنما هى دمعة محزون أرجو أن يكتبنى الله بها من الأوفياء المخلصين ، وأطمع أن يجعلها منى عرفانا للجميل الذى أسبغه على الفقيد وطوقنى به من ثلاثين عاما خلت من جوان (يونيو) ١٩٤١ إلى أن تقبله الله راضيا مرضيا .

فقد أنعم الله على بصحبته وخالص محبته ولزمته ثلاثة عقود من عمره المبارك ، كنت فيها أترقى فى اتصالى به وتعاونى معه من منزلة إلى أخرى ، حتى كتب لى فى إجازته إياى فى العلوم الشرعية واللغوية قائلا : « فلم نزل فى تقارب واتصال وتعاون على جلائل الأعمال حتى أصبحت مودته عندى علقاً كامل النفاسة ، وبنوته لى مصداق بيت الحماسة :

نحن بنى نهشل لا ندعى لأب
عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

فلقد كان لى شيخا ومربيا وأبا ، وأفادنى الاتصال به والملازمة له علما ورأيا وجميل أخلاق وصفات ، وواسع معرفة وباهر محاضرات ، أدعو الله أن يفرغ عليه من شآبيب الرحمة ويجزيه عنى وعن أمثالى الجزاء الأوفى ويوفر لنا مما ابتلانا به فيه أجرا .

حضرات الأساتذة

أيها السادة

انتسب الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور الحسنى الأشعرى المالكى التونسى المغربى الأندلسى إلى مجمعكم هذا الموقر من سنة ١٩٦١ فتسنى لكل من عرفه أو خالطه خلال ما بين

حفل استقباله وتكريمه بالأمس ، وحفل توديعه وتأبينه اليوم ، أن يلمس فى فقيدنا الراحل قيما وصفات ويتبين منه مواقف وكمالات ، كان اجتماعها فيه عنوانا دالا عليه وتحديدا كاملا لشخصيته .

ولو أننا عمدنا فى استعراض سريع إلى الإيماء إلى جوانب هذه الشخصية لألفيناها تنطق حضارة وأدبا،وتفيض معرفة وعلما وتسمو تقى ودينا .

أول ما يطالعك من الشيخ الفاضل أخلاقه الفاضلة . كان رحمه الله حسن الأخلاق ، موطأ الأكناف كريم المعاشرة ، جم أدب النفس مع رقة حاشية،وجميل ذوق،وفرط ذكاء وحسن تقدير للأمور .

اقتبس ذلك من بيئته النبيلة الراقية ، بيت العلم والشرف والمجد والوزارة ، ومن والده المعظم شيخنا محمد الطاهر ابن عاشور أطال الله عمره وبارك فى حياته العامرة بجلائل الأعمال وكريم الخلال ، ثم من تلك الأوساط الكريمة الفاضلة التى كان لها اتصال بأسرته ، ومن العلماء والأشراف أصحاب المجادة والرئاسة الذين كانوا يترددون على والده يفدون عليه من كل صوب وبلد،وتشدهم به أواصر القربى أو تربطهم به علاقات الإخاء والمودة . فكان بحكم هذه البيئة ناشئا فى وسط راق رائق ، توفرت له به أسباب المعرفة الغزيرة والخلق الرضى مع أذواق حضرية ممتازة . وهو إلى ما عكف عليه فى البيت فى سنى الطفولة من حفظ للقرآن الكريم وتلق للعقيدة الصافية،وتأدب بالسنة النبوية الشريفة، واستظهار لأهم المتون فى علوم الوسائل والمقاصد ، قد شدا اللغة الفرنسية وآدابها وتعلق بالتاريخ الإنسانى الحضرى والفكرى ، ووجد من مطالعاته قبل دخوله إلى الجامع الأعظم «جامع الزيتونة» ـ عمره الله ـ أول مدرسة خارج البيت انتسب إليها ، ما نمى مداركه وصقل مواهبه،وهيأه تهيئة كاملة للأخذ بأسباب المعرفة الدقيقة والعلم المتين .

وقد كان اتصاله بوالده وأستاذه خارج حلقات الدروس مستمراً دائماً طول حياته سفراً وحضراً إلى أن لقى ربه . وكانت له من ارتباطه وامتزاجه به منزلة مزدوجة من البنوة والصحبة،شاهدنا آثارها المباركة الزكية فيما كان عليه الفقيد من كمال التخرج فى الناحيتين العلمية والسلوكية؛وفيما كان يتحلى به رضى الله عنه من أخلاق النبوة .

ويظاهر هذا الجانب الخلقى فى شخصية الراحل الكريم جانب آخر عظيم عرفه الخاصة والعامة فيه،هو غزارة علمه واتساع ثقافته وصحة مداركه وسداد رأيه .

ومرد هذا أولا ـ كما ألمعنا إلى ذلك عند الحديث عن ظروف نشأته ـ إلى حسن تكوينه، غير أن الأدب البيتى والتكوين فى المدرسة الأولى المنزلية لايغنيان عن استفراغ الوسع فى طلب العلم والتبحر فيه . لذلك رأينا

الشاب محمدا الفاضل ابن عاشور يدخل الجامع الأعظم ويجلس إلى حلقاته يأخذ عن أعلام البحث والدرس وأساطين الفقه واللغة أمثال والده، والعالمين الجليلين المرحومين شيخ الإسلام محمد بن يوسف والمحقق النابغة الشيخ محمد النخلي، ثم إمام الأدب ورجل الفكر الضليع المتميز المرحوم الشيخ محمد مناشو ، فهناك توفر الطالب الشاب على دراسة علوم المنقول والمعقول ، منكبا على المصادر والتصانيف الهامة فى العلوم الشرعية ، يذاكر فى علوم القرآن ، والتفسير والحديث والفقه والأصول والكلام ومقاصد الشريعة والتصوف ، ويقرأ ويدرس بغاية الإمعان والتعمق كتب اللغة وعلوم العربية وأسرارها ، متنقلا من ذلك إلى مطالعات شتى فى دواوين الأدب وشروحه ، يحفظ ما يطيب له منها ويختار ، من خطب وأشعار ، ويتولى مع بعض زملائه من أعلام النهضة الأدبية أمثال الشيخ المرحوم الراوية محمد العربي الكبادى دراسة أمهات كتب الأدب ، من مشرقية كالكامل لأبى العباس المبرد ، ومغربية كنفح الطيب لأبى العباس المقرى .

وقد كان رحمه الله إلى جانب هذا التخرج المكين فى العلوم الإسلامية الشرعية واللغوية والأدبية ـ استظهارا لأصولها وقوانينها، وحذقا لموضوعاتها وفنونها ؛ وغوصا على كتبها ومعاقدها ، وفهما لقضاياها ومشاكلها ـ يحضر دروس التعريب والنقل بالمدرسة العليا للآداب العربية ، ويغشى مجالس العلماء وندوات الفكر ، ويشهد المحاضرات التاريخية والأدبية ونحوها بالجمعية الخلدونية وجمعية قدماء الصادقية . ولا يسمع بكتاب قيم جديد ينشر باللغتين العربية أو الفرنسية إلا أسرع إلى اقتنائه وألم بما فيه شكلا ومضمونا .

وتولد له من كل ذلك شغف بالمعرفة جعله ينقب عن المخطوطات النفيسة النادرة متأسيا فى هذا بأخيه وقدوته وشيخه : والده . فأحاط بالتراث الإسلامى إحاطة كاملة، وألم بقضايا العلم ، مكتملا لعناصره ، جامعا لمقوماته ، وعاش وسطه الفكرى والثقافى منتبها إلى كل ما يجرى به من التيارات ، مشاركا فيما يحدث به من هزات وتطورات .

فلا بدع بعد ذلك إذا تميز على معاصريه من بنى جلدته ذكاء وعلما وإدراكا ورأيا . فقد اجتمع له ما تفرق فى غيره ، وكان لنا منه وبه العالم الفرد الذى جمع بين أصالة التكوين وغزارة العلم وسعة المعرفة بالمصادر والكتب ، وبين الدقة فى النظر والإتقان للأساليب العلمية والأخذ بالطرق المنهجية فى الدراسة والبحث .

عرفنا ذلك وعرفه كل من تخرج عليه أو اتصل به فى دروسه وتقريراته ، وإنى ما أزال أذكر الدرس الأول الذى حضرته له سنة ١٩٤٢ وهو يشرح لنا صدر الرسالة الجدية لابن زيدون ، فإن نبرات صوته من ذلك اليوم ماتزال ترن تملأ مسمعى : وتوالت الدروس والتقريرات من شيخنا العلامة البحر ، كما اصطلح الناس بتونس على تلقيبه ، فى اللغة وآدابها ، والقرآن وتفسيره ، والعقائد وأحكامها والفرق

واختلافاتها، وشتى الفنون الأخرى، كالمقاصد الشرعية وتاريخ التشريع وتاريخ الأديان ونحوها، ولم أكن أومن أن واحدا من الناس يستطيع أن يدرس كل فن من فنون العلم الشرعية واللاغوية، فيجمع بين مختلف الاختصاصات، ويكون فى كل نوع إماما حتى حضرت دروسه وشهدت مجالسه. فهو اللغوى الأديب العالم الفقيه الأصولى المتكلم المؤرخ النضار المتقطع النظير غير منازع.

وقد سمت به همته رحمه الله رحمة واسعة إلى أن يضيف إلى نشاطه العلمى التدريسى هذا عملا آخر عظيم النفع كبير الجدوى فكان بعد انتخابه رئيسا للجمعية الخلدونية سنة ١٩٤٥ مؤسسا لحلقات من التعليم الثانوى العصرى أراد بها استكمال مناهج التدريس لطلبة الجامع الأعظم. وهكذا لأول مرة بتونس درست بتوجيهه وإشرافه كل الفنون الطبيعية والرياضية باللغة العربية. وانتدب لها أساتذة كثيرين من ذوى الاختصاص فى هذه المواد، كانوا وهم من أبناء لغة الضاد لايؤمنون بحكم تخرجهم بالمعاهد الأوروبية أن لغتهم الأصلية العربية تستطيع أن تضطلع بهذه المهمة أو تقوم بهذه الرسالة. وبفضل حرصه وعنايته مضوا فى السبيل التى خطها لهم، ونجحوا فى القيام بوظيفتهم، وتوجوا دروسهم بامتحانات أجروها على تلامذتهم فى نهاية دراساتهم، كان بها حصول الكثيرين من هؤلاء على شهادة الباكالوريا العربية التى وقعت معادلتها بالتوجيهية، وأذن لأصحابها بفضل سعى شيخنا الحثيث بالالتحاق بكليات الآداب والعلوم فى المشرق العربى والبلاد الغربية أين تخرجوا نهائيا مصر وسوريا وإنجلترا، فى التاريخ والجغرافيا والآداب واللغات الأجنبية والعلمين الرياضى والطبيعى.

وبعد أن ركز التعليم الثانوى العربى العصرى بهذا المشروع، ولقى ما لقى من عنت الإدارة ومدير التعليم العمومى الفرنسى، أسس اللجنة القومية للتعليم فى تونس وتولى رئاستها.

وأضاف إلى هذا العمل الثقافى البناء تأسيس معهدين عاليين بالجمعية الخلدونية: هما معهد الحقوق العربى ومعهد البحوث الإسلامية. وقد كانت محاضرات شيخنا الجليل رحمه الله فى معهد البحوث الإسلامية محور نشاطه وحركة الدفع وسند التوجيه به.

كانت له طوال أربع سنوات محاضرتان فى كل أسبوع، إحداهما مساء الاثنين وثانيتهما مساء الأربعاء، وكان فيها كعادته المحلى والأسوة. تشهد هذه المحاضرات الجموع الغفيرة وتكتظ بها قاعة المكتبة بالجمعية الخلدونية والمسالك المؤدية إليها. وكانت محاضراته ارتجالا لاتزيد ولاتنقص الواحدة منها عن الساعتين إلقاء.

ومن على منبر معهد البحوث الإسلامية بالجمعية الخلدونية حلل الراحل الكريم آراءه السياسية وأفكاره الإصلاحية وتوجه بدعوته الإسلامية . فصور للحضور ومن وراءهم من الناس حقيقة الجامعة الإسلامية متناولا على التوالى والترتيب حسب المخطط الذى رسمه لنفسه والمنهج الذى أعده لمحاضراته خلال تلك الفترة القصيرة الثرية الوحدات الأربعة عمد تلك الجامعة: وهى الوحدة العربية والوحدة الإيرانية والوحدة الطورانية والوحدة الهندية ، هكذا تعرض إليها واحدة واحده بالدرس والتحليل لعناصرها الكثيرة والمقومات المختلفة المتنوعة بها . وهو مع ذلك لا يفتأ يتتبع أحداثها ويساير تطوراتها ويقدم البيانات عن الحركات القومية والتحريرية بها ، مبشراً بالصباح الجديد والعهد السعيد .

هذا وقد رتب للمعهدين العاليين شهادات تتوج الدراسة بها .

وعقد سنة ١٩٤٧ مؤتمراً للبحوث الإسلامية بتونس دعا له الدارسين والباحثين من مختلف البلاد العربية والإسلامية

وقد عرف العلامة الفقيد الراحل فى مؤتمرات علمية كثيرة أخرى ، من بينها مؤتمرات المستشرقين ومؤتمرات مجمعكم الموقر هذا ، وكان يأنس فيها ويصاحب بها شيخه وصديق والده العلامة المغفور له الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ، أو الباشا كما كان يريد أن يسميه . وكان هذا الإمام والمؤرخ النابغ مع ما يكن للشيخ الفاضل رحمه الله من مودة معجباً به مقدراً لعلمه وأدبه لما كان يلمس فيه من معرفة غزيرة ورأى صائب ، ومايطلعه عليه فقيدنا من بحوث ودراسات يعدها للمشاركة فى تلك اللقاءات العلمية العالية .

هذا وقد قام الراحل الكريم بمحاضرات إسلامية وعلمية كثيرة بجامعات متعددة وعرفته الأوساط العلمية بالقاهرة والكويت والسعودية والمغرب وليبيا وتركيا وباكستان من البلاد العربية والإسلامية ، كما عرفته الأوساط العلمية الأوروبية بإنجلترا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا وأسبانيا .

وإنى متى ماذكرت هذا النشاط الجم وتلك المحاضرات والمعارف القيمة يؤلمنى جدا ويؤسف أهل الفكر ألا تكون كلها مجموعة مدونة . وليس لنا من كل ذلك غير كتاب الحركة الفكرية والأدبية بتونس وكتاب التفسير ورجاله ومحاضرات فى التشريع الإسلامى والمحاضرات التى نشرها له المجمع أو غيره من الهيئات العلمية وكتاب تراجم الأعلام . أما المخطوطات التى أعرفها له أو حدثنى عنها والدراسات الكثيرة التى كان يعدها فإنى أذكر منها رسالة ترجم لها بكشف الذعرات فى وصف الشعرات ، تحدث فيها عن ملاذ إفريقية وقدوتها الصحابى الجليل أبى زمعة الباوى رضى الله عنه ،

وتفسيره القرآن بالمأثور ، وجمعه وترتيبه لديوان بشار بن برد ،مع شرح موجز لما أشكل من تراكيبه وأغلق من معانيه ، وتحقيقه لمعجز أحمد لأبى العلاء المعرى ،ورسائل أدبية وقصائد ومقطعات من الشعر :

ولو يتاح لأحد أن يتفرغ لجمع آثار شيخنا ودراستها وتحليلها والتعريف بها لكان للناشئة من ذلك خير توجيه وأفضل تكوين .

فقد عرفنا فى الراحل العزيز الشيخ سيدى محمد الفاضل ابن عاشور الرائد الكريم ، الجليس الحبيب ، والشيخ الموجه ، والمربى النصوح ، والمدرس المحقق ، والخطيب المصقع ، والمحاضر المبدع ، والناقد البصير ، والكاتب المفن ، والشاعر الفحل .

ولاعجب بعد ذلك أن رزق الشيخ الفاضل فى بلده وخارج بلده المحبة والتعلق من كل من اتصل به أو لقيه ، والإكبار والتقدير من كل من عرفه أو خبره .

غير أن هذين الجانبين السلوكى والعملى فى شخصية فقيدنا لايمكن أن نتصور مداهما ولا أن ندرك على التحقيق طبيعتيهما إذا نحن أغفلنا الجانب الثالث المؤثر فيهما والصاهر لهما وهو الجانب الدينى .

فالدين عند فاضلنا عقيدة وسلوك علانية وسرا .

هو عقيدة تعمر قلبه إيمانا ، وتملأ نفسه اطمئنانا ، وتشرح صدره إيقانا ، ومن تكن تلك حقيقته يرزق الصمود والثبات والقوة والجرأة والخشية الكاملة لله والتعلق الدائم بالأصول الإسلامية والمبادئ الشريفة الشرعية التى حببها لنا الرحمن ؛ ودعانا لها القرآن وحثنا عليها إمام المرسلين وقائد الغر المحجلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وقد كانت هذه العقيدة راسخة فيه ممتزجة بذهنه وقلبه لكثرة ماكان يتعهد به نفسه من تلاوة القرآن الكريم فى أوقات توجهاته ، ومن رواية الحديث الشريف باطراد وخاصة فى ليالى رمضان من كل عام بين يدى والده شيخنا الجليل .

والدين سلوك عنده ، بما حمل عليه نفسه من طاعة الله ومراقبته فى أمره كله ،وماكان ينزع إليه من ألوان المعروف والإحسان ابتغاء مرضاة ربه،والتأسى برسوله،فيما يأتى ويذر ويستقبل ويستدبر من شؤون وأحوال وشواغل وأعمال .

كانت روحه الكريمة الطيبة الطاهرة تزخر إيمانا وتفيض إحسانا . فإذا هوالداعى إلى الله المجاهد فى سبيله المجادل لأعدائه المثبت لدينه الذائد عن حماه . وإذا هو فى كل عمل يقدم عليه تربويا كان كالعناية بالأطفال والشبان والخاصةوالعامة،أو اجتماعيا كالحركات العمالية وتوحيدها وتنظيمها وتكتيل جهودها ، أو سياسيا كان كالدعوة إلى الوحدة وبناء الجامعة الإسلامية والعمل على توثيق الروابط والسعى فى ابتغاء العزة التى كتبها الله للمؤمنين ، أو فكريا كتركيز الأصول الثابتة العقائدية والدعوة إلى الايمان بالمثل الإسلامية والقيم

الدينية ، لايراقب فى ذلك كله إلا الله ولايهتدى فى عمله جميعه إلا بهديه وسنة رسوله :

وهو فى خلواته كثير الخشوع إلى ربه يدعوه تضرعا وخيفة ، ويتقرب إليه بألوان القربات والطاعات وقد شاهدت من هذه المشاهد أحواله فى طوافه وفى توجهاته فى الأسحار، وماكان يقوله من دعوات وأذكار، وماكان يبدو عليه من عظيم الخشية وكبير التقدير لرسول الرحمة وشفيع الأمة صلى الله عليه وسلم . عرفت ذلك منه حين شرفنى رحمه الله بأن أتلو بين يديه ثلاثيات البخارى أمام المواجهة الشريفة، وأروى كتاب الموطأ لإمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه فى الروضة النبوية زادها الله سناء عام حججت معه سنة ١٣٨٥هـ . وقد كتب لى فى الأصلين الذين تلوت منهما الشهادة بصحة وتمام الرواية، كتب الله له فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة إنه سميع مجيب .

تلك هى الجوانب المتكاملة من شخصية العلامة فقيد العروبة والإسلام شيخى مقام والدى المقدس المبرور سيدى محمد الفاضل ابن عاشور . ولا أريد أن أطيل فى هذا القول ولا أقدر أن أفصل شيئا من نواحيها وجهاتها، لأنى، وإن رضيت بأن أقحم نفسى فى هذا المجال، فإنما كان ذلك لأذكر لهذا المجمع الموقر فضله وأشكره باسم الأسرة الزيتونية أبناء الرحم العلمية التى شرفت بالانتساب إلى الراحل الكريم ، وأدعو الله مخلصا أن يرزقنا صبراً، ويدخر لنا فى الآخرة أجراً ، ويعلى مقام شيخنا الفقيد العزيز فى عليين ، ويجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

• كلمة الأستاذ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والد الفقيد :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تحية مباركة طيبة ، أوجهها إلى السادة الأساتذة العلماء الجِلَّة رجال المجمع اللغوى ، وإلى السيد الأمين العام الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور ، الذى أَلبىّ طَلِبتَه ـ بكتابه رقم ١٠٥ ـ أن يكون لأسرة زميلهم الفقيد العزيز ابنى ـ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ـ كلمة فى حفل تأبينه ، الذى يُقام فى هذا اليوم ، جَرْيا على ماجرت عليه تقاليدُ المجمع من تأبين أعضائه الأَشِقّاء فى مؤتمره كل عام ، ونِعْمَت السُّنَّة للوفاء بالعهد .

وأما بعد ، فلا أيمنَ ، ولا أبلغ فيما يحق أن أفتتح به خطابى ، المَتلُوّ فى هذا المقام من الكلمة النبوية الجليلة «تدمَعُ العَيْنُ ويَحْزَن القلبُ ، ولانقول إلامايرُضِى الرَّبَّ » .

فإذا كانت تلك النفسُ المحمدِيَّة الزَّكيّة تعبّر عن تمكُّن الحزن منها وتجدُّده لفقدان فِلْذة الكَبِد ، فماذا يُظَنّ أن يُقْدر به تأثُّر نفسِى الضّعيفة من الأَسى (فإنّا لله وإنا إليه راجعون) .

غيرَ أنى أجد سُلوًّا بما رَوّح على النفس ، من خالص تعزيات أُسرة هذا المجمع الجليل ، والتعبير عن صميم مشاركتهم لأسرة الفقيد فى مصابنا الجَلَل ، وخاصة ما ألقاه ممثل المجمع ، الشاعر العبقرى ، الأستاذ عزيز أباظة فى حفل الأربعين الذى أُقيم بتونس . من شعر يَلوحُ منه بَرْق صداقة لَمّاعة ، ووَدْق عهود محفوظة غير مضاعة .

واليوم أعاد إزجاءَ سحائبه ، ماهب عليها من لواقح هذا الحفل الجليل ،

مما دل على أنه ود لا ينضب ماؤُه . ولايرنق بمرور الزمان صفاؤُه . ووددت لوكنت حاضرا بينكم بجثمانى ليتظاهر المقال مع شواهد الحال ، بيد أنى أرسلت كتابى هذامعبرًا عنى ، فما الكتاب إلا أثر القلم الذى أمسكته اليد ، إمساك الماتح بالعُرْوة ، ليفرغ سَجْلًا مما فى الضمير من جزيل الشكر ، والاعتراف بالجميل للسادة أسرة المجمع ، وإنى لأجد حال شكرى لهم ، مصداق ماودَّه أبوالعلاء ، أن يكون به لقاؤه لأبى حامد الإسفرائينى بقوله :

يممتُه وبودى أننى قلم
أسعى إليه ورأسى تحتَ الساعى

شكرًا أرجو أن يفى بحق ما أبدوه جماعاتٍ ووحدانا ، من مشاطرتى وسائر أسرة الفقيد العزيز فى الأسف والأسى ، من مقاويل ومستمعين مشاطرةً منبعثة عن صدق الأخوة ، ورعى صفاء الخُلة ، لفقيد كان ذكرهم بالجميل هِجِّيرا لسانه ، والتحفز للقائهم أهم شانه .

وللأستاذ الجليل رئيس المجمع الموقر ، من ذلك الحظُّ الأوفر ، ولكل من الأستاذين نائب الرئيس والأمين العام مايوازنه .

وأبتهل إلى الله تعالى ، أن يجازى الفقيد العزيز أحسن الجزاء ، على مابذله من طاعة الله ورسوله ، فى تأييد الشريعة الإسلامية ، والذب عن اللغة العربية : « ومن يُطعِ الله والرسول ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً » .

وأعيد إليهم تحية الختام ، وذكرى السلام ، منى ومن أسرة الفقيد العزيز .

في الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ١١ من المحرم سنه ١٣٩١ هـ الموافق ٨ من مارس سنة ١٩٧١ م أقام المجمع حفل تأبين لفقيده المغفور له الأستاذ مصطفى نظيف ، الذى استأثرت به رحمة الله فى ١٩٧١/١/١١ . وفيما يلى ما القى فى هذا الحفل :

كلمة الدكتـــور عبد الحليم منتصر فى تأبين المرحوم الأستاذ :

مصطفى نظيف

أيها السادة :

أشفقت على نفسى ، حين رأيتم أن أقوم بتأبين فقيدنا العظيم مصطفى نظيف ، فأين أنا من الاحاطة بهذه الشخصية العظيمة الفذة ، التى يعز نظيرها فيمن أعرف من الرجال ، وأشفقت عليكم أن تستشعروا قصورى عن تجلية شخصيته ، لأنى أعلم إجماعكم على حبه وتقديره ، وهيهات أن أرسم صورة ترضيكم أو ترضون عنى من أجلها .

وإنى لأعترف بادئ ذى بدء بعجزى عن ترجمة أحاسيسى لفقده ، فقد فاق تقديره لدى كل حدود ، وليس غريبا أن يكون حزنى عليه مؤبدا كما يقول الشاعر ، حتى لقد رددت قول الأخطل الصغير :

سألتنيه رزاء خذه من كبـــدى
لا يؤخذ الشئ إلا من مصـادره

فامنك معتاض ولاعنك سلوة
نظيرك مفقود وحزنى مؤبد

ثم عدت أردد قول شوقى :

قد كنت أوثر أن تقول رثائـــى
يامنصف الموتى من الأحيـــاء

عرفت أستاذى وصديقى مصطفى نظيف منذ نيف وعشرين عاما ، حين دعانى لإلقاء محاضرة عن الرواد الأوائل من العرب فى علم النبات ، وإذابه يقبل على بعد المحاضرة مهنئا هاشا باشا وفى عينيه رضا وفرح ، كأنى بها بسمة المعلم الفرح بتلميذه ، أو الوالد بابنه ، إنها بسمة الحب الأبوى الصادق الذى لايغيض أبدا .

ومنذئذ اتصلت بيننا آصرة قوية من الصداقة الصادقة الصدوق ، زادتها الأيام وثاقة ، وأضافت اليها روابط العمل فى الجامعة والمجمع وفى الاتحاد العلمى والجمعيات العلمية والمؤتمرات العلمية وغيرها من أوجه النشاط العلمى ، الذى كان رحمات الله عليه ،

يمنحه من ذات نفسه وجهده الكثير ، لقد أضافت هذه الروابط فى أواصر الود والتقدير فتكررت اللقاءات ، والمقابلات ،والاحاديث والاتصالات ، بل والمكاتبات حين يشط المزار أو يعز اللقاء ، حتى لقد شاع وعرف، أنى قد اتخذت منه شيخى ومعلمى وأستاذى ، وتفاخرت بين لذاتى بهذه المشيخة وتلك الأستاذية ، ولم يضق هو بها — وحين تحدثت إلى أستاذنا الدكتور كامل حسين فى أنى قد اتخذته هو الآخر شيخا لى ، قال بل هو شيخ لى ولك .

ولست أدرى من أى جوانب هذه الشخصية النادرة المثال أبدأ الحديث ، وكلها جوانب مشرقة مضيئة وضاءة، يكاد سنا ضوئها أن يأخذ بمجامع القلوب بله الابصار، فثمة متانة فى الخلق إلى أبعد الحدود ، واعتداد بالكرامة فى أبلغ صوره ، إلى درجة من الامانة قل أن عرف لها نظير ، إلى دقة فى العمل ، وسعة فى العلم ، ورحابة فى الصدر ، لقد اجتمعت فى مصطفى نظيف صفات العالم بكل ما فى الكلمة من معنى ، إنه العيوف عن الصغائر ، والترفع عن الدنايا ، والزهد فى المال والجاه والسلطان ، والدقة فى البحث ، والعمق فى التفكير والاستعلاء بالعلم، مع الإحاطة والشمول فى المعارف العلمية ، كل ذلك فى عظمة العلماء، وتواضع العظماء .

أذكر حين عقد المؤتمر العلمى العربى الأول فى الاسكندرية سنة ١٩٥٣ وانتخب بالإجماع رئيسا له ، وحضر السيد رئيس الجمهورية فى موكبه المهيب ، وإذا بمصطفى نظيف يستقبله عند مدخل المدرج ، ويفتح خطابه الجامع قائلا . . لقد مضى الزمن الذى كان يسعى فيه العلماء إلى الحكام ، وجاء الزمن الذى يسعى فيه الحكام إلى العلماء .

وحين جاءه وهو مدير للجامعة خطاب ، ممن لا يحق لهم أن يوجهوا الخطاب إلى مديرى الجامعات ، أصر على أن يحضر الكاتب بنفسه ليعتذر ويسحب الخطاب ، وكان له ماأراد ، وما أظن مثل هذا التصرف الحازم قد وقع بعد ذلك أبدا .

وعندما تعرض مجلس الجامعات إلى بعض الأقسام أو الكليات فى جامعة عين شمس دون أخذ رأى الجامعة ، إذابه يجمع أوراقه ، ويقول إذا اتخذتم فى ذلك قرارا فلن أكون مسئولا عن جامعة عين شمس ، وقلت له إنى متضامن معك ، ولكنه آثر أن يذهب إلى الوزير وحده ، وعندما توجه إليه أخذ بوجهة نظره وأقره عليها .

وحين قرأ فى صحيفة صباحية وهو على مائدة أفطاره حديثا لم يرقه ، رأى فيه مساسا به وبالجامعة ، كتب استقالته وتوجه من فوره إلى الوزير ، وطلب مطلبا معينا وجد فيه الترضية ، فلما لم يجب إليه ، قدم استقالته وعاد من فوره إلى منزله .

وحين توجهت إليه مع مجلس الكلية بعد استقالته ليقبل أن يكون أستاذا غير متفرغ بالكلية، لم يتردد فى اجابتنا إلى مطلبنا، وكان

آخر عهده بالتدريس الجامعى فألقى مقررا فى تاريخ العلم ، وآخر فى البصريات ، لقد ذهبت وظيفة المدير ، ولكن بقيت فى مصطفى نظيف الأستاذية التى لاتزول ، وما أظن الذين تتلمذوا عليه فى كلية العلوم بجامعة عين شمس . . سينسون هذه الشخصية أبدا . . وكان الحرج البالغ أنه يرد المكافأة عن أشهر الصيف ، وما أشك فى أن له فى ذلك قرينا أبدا .

قلت له يوما لقد كفرت بالقيم ، وهى التى عشنا بها وعملنا لها طيلة حياتنا ، فغضب رحمات الله عليه غضبا شديدا وقال إن مثلك لايكفر بالقيم أبدا ولاينبغى له ، وإنما يكون الكفر بالذين لم يبقوا عليها ويعملوا بها ويؤمنوا بها . . وتطرق الحديث إلى تحكم الأقزام بحكم مواقعهم ، فقال إن الأقزام لن يستطيعوا البقاء فى تلك المواقع أبدا وسيتركونها حتما يوما ما ، طوعا أو كرها ، وأما القيم فستبقى أبد الآبدين .

وانعقد مجلس الجامعة يوما برياسته فى هيئة محكمة تأديبية عليا ، لمحاكمة عضوين من أعضاء هيئة التدريس ، أما أحدهما فقد اتهم بتبديد أشياء فى إحدى تجاربه وبحوثه وكان يمكنه الاحتفاظ بها والإبقاء عليها ، وأما الآخر فقد اتهم بالتطاول على أستاذه — وقد حوكم الأول من قبل هيئات مختلفة وقد أدانته جميعا ، ثم جىء به إلى هذه الهيئة التأديبية العليا لترى رأيها فيه ، ولم يكن المتهم ممن يحسنون الكلام والدفاع ، وإنما يبرطم به برطمة ، فنهره الرئيس قائلا ، إننا نحن الذين نحاكمك ولست أنت الذى تحاكمنا ، فهمست فى أذنه أن يترفق بالمتهم حتى تثبت الأدانة وسألت المتهم أن يشرح لنا الهدف من التجربة ، وأن يتأنى فى حديثه ، ويسلسل الوقائع ، فإذا بالأرقام والنتائج الإيجابية فى صفه ، فقلت إياكم والحجر على حرية البحث العلمى ، إن للباحث أن يجرب كيف شاء ما دام يتبع الأساليب العلمية الصحيحة ، وإنه لم يثبت على المتهم أنه أخذ لنفسه شيئا أوأضاع علىالدولة حقوقها، ومن واجبهأنيكررالتجربة، وأنيتثبتولايتعجل، ونحن هيئة من المشتغلين بالعلم نحاكم زميلا فإذا أدناه ، فسيكف كل باحث فى معمله عن البحث ، وكان أن اقتنع الجميع ببراءة ساحته،وكان الرئيسأول المهنئين له.أما الآخر فكان جزاؤه شديدا وعقابه صارما .

وانعقد مجلس النقابة يوما برئاسته ، وانبرى أحد الزملاء الشبان يفند ما انعقد عليه الإجماع تقريبا ، ويوجه الرأى وجهة أخرى ، ولما رآنى قد أسرفت فى لومه أوقفنى عند حد بقوله، وأينحرية الرأى إذن تلك التى تدعو لها وتؤمن بها .

وكذلك كان عالمنا الكبير ، أبدا نصيرا لحرية الرأى ، ذَابًّا عن حياضه ذَيَّادًا عن حوزته ، مؤمنا بالقيم الإنسانية العليا ، من عدل وإنصاف وأمانة وخير ، لا يرضى عنها بديلا ، ولا يستطيع عنها حولا .

أما عن دقته وأمانته فى العمل فقد بلغ فى ذلك حدا قل أن عرف له نظير ، فلا أذكر على طول الزمان الذى عرفته وعملت معه فيه سواء فى الجامعة أو النقابة أو الاتحاد العلمى أو المجمع اللغوى ولجانه ، أن تأخر يوما عن موعده ، أو حضر اجتماعا أو جلسة أو لجنة لم يكن قد درس الموضوعات المعروضة دراسة وافية مستفيضة ، أو أعد المادة المطلوبه أعدادا سليما ، أو أباح اجتماعا لم يحضره العدد القانونى ، فاذا لم يحضر العدد القانونى ، فلا اجتماع ، وإذا تأخر بعض الأعضاء عن ربع الساعة مثلا فلا اجتماع ، ولا خروج عن المناقشة فى الموضوع المطروح ولا جلسة تطول أكثر من الموعد المقرر لها : كأنما كل شىء عنده بمقدار ، كل ذلك فى جد صارم محبب ، لا مراء فى أنه قدوة صالحة للعمل الدقيق المنتج ، وكم كان يستبين — لا أقول الفرق بل البون الشاسع — بين جلسات يتولى أمرها ، وغيرها يتولاها سواه ، ففى الأولى ما ذكرت من جد ودقة ودراسة ، أما فى الثانية فالجلسات تستمر أياما ، وهذه المسألة أو تلك تؤجل لاستيفاء بياناتها ، وهذه تتشعب المناقشة فيها إلى غير اتجاه وغير هدى .

ومع هذه الجدية الصارمة المحببة التى أثرت عنه وعرف بها ، فقد كان يشفق على تلاميذه ومريديه أن يحتذوا به ، فقد ظل يذكر لى حتى قبيل وفاته بأيام بعض عبارات قلتها فى مناسبات خاصة كقولى فى تقرير علنى عن تصرف أحد المسئولين ، أنه تصرف أقل ما يقال عنه أنه قد جانبه التوفيق ، وعن قولى لآخر وقد عرض على أن يعتذر لى المسئول من موظفيه — بل — تعتذر أنت — فكان يقول وفى وجهه بسمة رضا وتحبيذ وتشجيع ، وفى صوته رنة اشفاق ، لا عليك أو رفقا ، وكم كان يسوؤه أن تتبدى عدم الجدية فى العمل أو الإهمال أو التسويف أو إضاعة الوقت فيما لا طائل فيه .

ولا مراء فى أنه كان فى ذلك كله أمة وحده ، لا أكاد أضع معه فى نفس المستوى أحدا — وكنا نتبين بعد نظره ، ولو بعد مدة ، حين يعلق على بعض القرارات بأنه غير مرتاح لها ، وإذا الأيام تثبت أنه كان على حق ، ولكن القرار سليم من حيث الشكل ومن حيث موافقة الأغلبية ، فهو يخضع له ، ثم يعلق هذا التعليق الخاص بأنه غير مرتاح له .

وقد كان عالمنا حفيا بنشر الثقافة العلمية ، داعيا إلى تأصيل العلم فى البيئة العربية ، وكان لا يفتأ يردد هذه المعانى فى محاضراته العامة وفى المؤتمرات العلمية ، استأذنته مرة فى إقامة موسم ثقافى لكلية العلوم فى مكان عام بعيدا عن أبهاء الجامعة ، بل فى مكان وسيط ، فرحب بالفكرة فى الحال ، وعرض أن يلقى محاضرة الافتتاح ، وكان والحق يقال كدأبه أبدا محاضرا ممتازا ، موضوعا وبحثا وعرضا ولغة وإلقاء وأسلوبا ، وكم أتمنى لو تجمع هذه المحاضرات العامة التى لم تشملها كتبه فى مطبوع خاص لتنشر على الناس فى كتاب

ففيها من الأفكار والآراء والدراسات مايستحق التسجيل والتخليد ، ولعلنا لا ننسى محاضراته الرائعة فى التاريخ للجامعات المصرية ، ولا دراسته الفذة التى أعدها بمناسبة العيد المئوى للمجمع العلمى المصرى ، فقد أبى ألا أن يستعرض تاريخ مصر فى يوميات الجبرتى ، فأرسلت فى طلبها ليعكف عليها فى دراسة أمينة وافية لتاريخ المجمع العلمى ، ومع ذلك فلم يتح لهذه الدراسة أن ترى النور لأسباب لا محل لذكرها ، ويتجلى صبره العجيب فى البحث والدرس حين أراد أن يؤرخ للجامعات ، فلا بد أن يرجع إلى سجلات الوقائع المصرية ويقرأها بنفسه ، يستقرئ القرارات الوزارية ومحاضر الجلسات الخاصة بهذا الموضوع ، حتى تكون الدراسة مدعومة بالأسانيد التى لا تقبل الشك ولا يقاربها مين ولا زيف .

سألته الرأى يوما فى طلبى للعمل بالخارج ، وذكرت له رأى من أشار بالقبول ، لأن عملى هناك نفع عام وعملى هنا نفع خاص ، والعام يجب الخاص ، فقال متسائلا : وأليس عملك هنا من النفع العلمى العام ، وكأنما كان يريد أن يقول إنك لا تصبر على ضيم ، وأن النفع العام هنا أحق وأولى وأكرم . وكذلك كان بعيد النظر ، كأنه المعنى بقول الشاعر :

يرى فلتات الرأى والرأى مقبل
كأن له فى اليوم عينا على غـــد

أما غيرته على اللغة العربية واستعمالها لغة للعلم ، فكانت فائقة الحد ، وقد ذكر لى يوما أنه لا حظ هذه المفارقة العجيبة ، حين كان أستاذا بمدرسة المعلمين العليا فى العشرينيات ، وكان هو وصديقه المرحوم الأستاذ عبد الحميد أحمد يدرسان الكيمياء والطبيعة باللغة الإنجليزية ، على حين أن زملاءهما من الأساتذة الأجانب يدرسون الرياضيات باللغة العربية وقد أستقر رأيهما على التدريس باللغة العربية ، فلما كان الغد كان يحاضر فى علم الطبيعة باللغة العربية ، ومنذئذ اتخذها لغة التدريس سواء فى المعلمين العليا أو كلية الهندسة أو كلية العلوم بعد ذلك . وكان من رأيه أن المصطلحات ليست عقبة أبدا ، وأننا إذا انتظرنا حتى نفرغ من ترجمة المصطلحات ، ثم توحيد ترجمتها فى البلاد فسيطول انتظارنا جدا ، وأذكر له نظيرين فى هذا الرأى هما المرحوم الدكتور مشرفة والمرحوم الدكتور ولى فقد أجريت استفتاء حول هذا الموضوع منذ سبعة وثلاثين عاما ، فكان الرأى أن نبدأ فى الحال — وقد أتاح له ذلك فرصة تأليف مراجع أساسية فى علم الطبيعة باللغة العربية كان يذيلها بالترجمة العربية للمصطلحات الأجنبية .

وقد اشتهر عالمنا الأستاذ مصطفى نظيف بدراسته لأعمال العالم العربى الأشهر « ابن الهيثم » . ولا شك أن هناك تقابلا وتلاؤما بين الشخصيتين ، فهو يقول عن ابن الهيثم وكأنما يصف نفسه : إن ابن الهيثم فى منحى

تفكيره وفى طريقة بحثه ، رجل تتوافر فيه الصفات التى تتوافر فى رجالات العلم فى العصر الحديث ، فهو عالم بمعنى « سيانتست» بكل ما يؤديه هذا اللفظ من معانى ، وهو فى ميدان علم الطبيعة أن لم يكن من طراز المحدثين فى الجيل الحاضر فإنه من غير شك من طراز علماء الطبيعة فى القرن التاسع عشر ، وبحوثه المبتكرة فى علم الضوء تجعله فى مقدمة الأعلام الأفذاذ فى تاريخ هذا العلم ، ولكن له غير ما أضافه على صفحات هذا العلم من الصفحات المجيدة ، أثرا عاما عميقا ، جعل علم الضوء ، يتخذ صبغة جديدة وينشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى ، وهذا التأثير الذى أحدثه ابن الهيثم فى علم الضوء يتغلغل إلى الأساس ذاته الذى يقوم عليه هذا العلم جدير بالتقدير — ويقول : إن أثر ابن الهيثم فى علم الضوء نظيره فى تاريخ العلم أثر نيوتن فى علم الميكانيكا ، ولا يضيره أن يقال إن بعض بحوث ابن الهيثم قد سبقه إليها أوقليدس فى أحد شطرى قانون الانعكاس ، وبطليموس فى دراسة الانعطاف ، وآخرون فى بيان كيفية الإحراق فى المرايا المحرقة — ولكن كما كانت أصول علم الميكانيكا مبعثرة قبل نيوتن ، فأدرك حقائقها وأضاف إليها وربط بينها حتى صارت على يديه وحدة شاملة هى التى قام عليها علم الميكانيكا . وكذلك علم الضوء ، أو كما كان يسمى علم المناظر ، وأنه حتى الفكرة الأولية البسيطة من أن للضوء وجودا فى ذاته ، لم تكن من الأمور المسلم بها ، وأن أوقليدس وبطليموس وغيرهما ممن سبقوا ابن الهيثم كانوا متفقين فى أن الإبصار هو بخروج شعاع من البصر إلى المبصر ، فالذى ينعكس بحيث تكون زاوية السقوط فيه مساوية زاوية الانعكاس هو هذا الشعاع ، والذى ينعطف فى الماء مثلا إلى العمود هو هذا الشعاع ، فهو الذى يخرج من البصر ويقع على السطح العاكس فينعكس أو على سطح الماء فينعطف ، فإذا وقع بعد انعكاسه أو انعطافه على مبصر ، أدرك البصر هذا المبصر بالانعكاس أو الانعطاف .

لقد أعاد ابن الهيثم بحث هذا كله ، واتجه وجهة جديدة لم يولها أحد من المتقدمين ، وأصلح الأخطاء وأتم النقص وأضاف الجديد ، لقد أبطل علم المناظر القديم وأنشأ علم الضوء بالمعنى الحديث ، وإذا كانت دائرة المعارف البريطانية تقول إنه بعد بطليموس لم يظهر من يجاريه فى علم الضوء إلا ابن الهيثم ، فمن الحق أن نقول إن مصطفى نظيف هو مجلى علم الضوء فى البلاد العربية بعد ابن الهيثم .

ويقول إنه ما كاد يهم بهذه الدراسة عن بحوث ابن الهيثم وكشوفه البصرية حتى ملأ نفسه اعتقاده بأن من بحوث ابن الهيثم فى موضوعات علم الضوء ما لا يصح أن يعد مجرد زيادة اتسعت بها دائرة المعلومات ، بل حقيق بها أن تعد أحداثا قلبت أوضاع هذا العلم وعدلت مجراه ، ولا يكفى فيها نشر ما لم يطبع من مخطوطات بل هى جديرة

بعمل أبعد غورا وأشد جهدا من التقدمة لها بمقدمة والتعليق عليها فى الهوامش ، هى جديرة أن تدرس وتمحص مع شىء غير قليل من التلطف فى تفهم معانيها ومقاصدها، فبعد الأمد بيننا وبين صاحبها يجعلنا اليوم لا نألف بسهولة بعض اصطلاحاته وعباراته، بل ولا ماهية ما كان يسود القول فى عصره من الآراء والمذاهب العلمية ، ثم يقول إن بحوث ابن الهيثم فى موضوعات الضوء ، ما ورد فيها فى المناظر وما ورد فى المقالات الأخرى ، تبين أنها حقا جديرة بأن تدرس فى أجملها كوحدة ، دراسة يصحبها التحليل والموازنة ، فهى جميعا نتاج عقل واحد ، فقد توافرت فيه مميزات أولى التفكير العلمى الصحيح ، وهى من خير الأمثلة التى تدل على نضج الفكر وعمق النظر .

ويضع الأستاذ نظيف مثالا ينبغى أن يحتذى فى هذه الدراسات ، حين يقول إنه لا يكفى فيها تحرى الأمانة والصدق فى مجرد عرضها على ما جاءت عليه فى الواقع ، وإنما يجب تحرى العدل والإنصاف اللذين يقضيان بالحرص على تعرف ظروفها ومعرفة ملابساتها ، ثم معايرتها بالمعيار الذى يلائمها ، حتى نتبين قيمتها الصحيحة وتحل فى المكان الذى هى أهل له فى تاريخ نشوء العلم وتطور الفكر .

ويضيف أنه يرى أن من المعلومات التى يتضمنها الكتاب ما كاد يطويه الدهر فى ثنايا النسيان ومنها تفصيل مالا يزال العلم به مجملا أو مقتضبا وأنه ليأمل أن يكون لهذه الدراسة بعض الأثر فى تعديل الأوضاع التاريخية لبعض البحوث والكشوف العلمية الخاصة بعلم الضوء ، كما يأمل أن يكون من آثارها بعث ابن الهيثم بعثا جديدا فى الكتب التى تؤلف لطلبة مدارسنا فى هذا العلم ، وأن يستبدل أسمه بأسماء أمثال روجر باكون ومورلكيوس ودافنشى ودلابورتا وكيلر وغيرهم فى مواضع كثيرة، ألفنا فيها رؤية هذه الأسماء ، كما يأمل إصلاح كثير من الاصطلاحات والعبارات التى نستعملها الآن فى علم الضوء، فيستبدل بها خيرا منها مما ورد فى أقوال ابن الهيثم ويمتاز دقة ورصانة .

لقد وجد عالمنا فى ابن الهيثم صورة من ذات نفسه فشغف به ، وأقبل عليه ، وبذل فى دراسة أعماله جهدا رائعا ، ووضع مثالا يحتذى فى دراسة تاريخ العلم ، وأقبل المستشرقون والمهتمون على دراسة كتاب عالمنا عن ابن الهيثم الذى يقع فى جزأين تبلغ صفحاتهما نحو الألف عدا . وتتجلى فيها الأمانة العلمية والدقة الفائقة والصبر بغير حدود على القراءة والمقارنة والتحليل حتى يصل إلى الحقيقة ناصعة لا زيف فيها ، وجلى لنا وللعالم ابن الهيثم أبدع تجلية وأروعها ، ووضعه فى مكانه الصحيح بالنسبة لتاريخ العلم عامة وللبحوث والكشوف البصرية بصفة خاصة .

لقد خلص أستاذنا مصطفى نظيف من هذه الدراسة الممتعة بالنسبة لابن الهيثم ، إلى

مثل ما خلص اليه أستاذنا المرحوم الدكتور مشرفة من دراسة لأعمال الخوارزمى حين قال: « صحيح أنه كانت هناك معلومات مشتتة متناثرة فى الحساب قبل الخوارزمى ، وكان حل بعض المعادلات الجبرية معروفا قبل الخوارزمى ، ولكنا لم نعثر على كتاب واحد يشبه كتب الخوارزمى وكان لا بد أن تنتقل هذه المعلومات المتناثرة المشتتة إلى عبقرى كالخوارزمى ، لكى ينسقها ويعلمها للناس أجمعين » . وها هو ذا مصطفى نظيف يدرس ويقارن ويحلل أعمال بطليموس وأوقليدس وغيرهما ممن سبقوا ابن الهيثم ، وينتهى إلى القول بأن ابن الهيثم قد وضع أسس علم الضوء بالمعنى الحديث ، وأنه أبطل علم المناظر الذى كان معروفا أيام هؤلاء وأولئك ووضع أسسا ونظريات وآراء جديدة لم يسبق اليها .

وقد بدأ عالمنا بدراسة كتاب « فيتلو » فى البصريات الذى نشر فى القرن الثالث عشر الذى قال إنه وضعه على أساس كتاب بطليموس القلوذى وآخر لعالم عربى عرف باسم الهازن . ونشر « رزنر » سنة ١٥٧٢ ترجمة لاتينية للكتاب العربى بعنوان «الذخيرة فى الأوبطيق للهازن » فتبين أن جل ما ورد فى كتاب « فيتلو» قد نقل من الكتاب العربى ، وقد قال دلابورتا بعد ذلك «لقد أخطأ فيتلو» فيما نقله عن الهازن وكان كالقرد المقلد . ولبث هذا الكتاب المنقول عن العربية مرجع أهل أوربا فى علم الضوء خلال القرون الوسطى . يقول مصطفى نظيف وقد تبين لى على التحقيق أن جل البحوث والكشوف الضوئية التى تنسب إلى علماء أوروبا حتى عصر النهضة قد وردت فيه ، وأن كثيرين من علماء أوروبا المشهورين فى تلك العصور لم يسموا إلى مستوى الآراء والفكر الأساسية التى ذكرها ابن الهيثم ، وأنه كان للكتاب أثر عميق فى توجيه دراسة علم الضوء إلى الوجهة الصحيحة ، ويقول إن مستواه العلمى بوجه عام قد سما سموا رفيعا فوق مستوى كثير من الكتب العلمية التى ألفها الغربيون فى تلك العصور ، ـا فيها مؤلفات كبلر فى الضوء . وكذلك أثبت أن كتاب الذخيرة اللاتينى أنمـا هو ترجمة كتاب المناظر لابن الهيثم .

يقول وكأنما يصف نفسه ، وعظمة ابن الهيثم العلمية ، لم تشبها قط شائبة من الغرور أو يمسها ضعف من الخلق ، بل زادها متانة الخلق وجمال التواضع جلالا وبهاء . كان فاضل النفس ، وافر التزهد ، محبا للخير وفوق حبه عمل الخير لذاته ، وفوق زهده عن المـال وترف العيش متواضعا ، مقدرًا السابقين من العلماء حق التقدير ، يذكرهم بالفضل والإحسان ، وينصفهم حقوقهم كاملة . وهو إن ابتكر فكرة جديدة أو تناول بحثا لم يسبقه اليه أحد ، قنع بالإشارة إلى ذلك بمثل قوله ولا نعرف أحدا من المتقدمين ولا المتأخرين بين هذا المعنى ولا وجدناه فى شىء من الكتب ، ويروى عن القفطى: « سمعت أن ابن الهيثم كان ينسخ فى

مدة سنة ، ثلاثة كتب ضمن أشغاله ، وهى أوقليدس والمتوسطات والمجسطى ، فيستكملها فى مدة السنة ، فإذا شرع فى نسخها جاءه من يعطيه فيها خمسين ومائة دينار مصرى ، وصار ذلك كالرسم الذى لا يحتاج فيه إلى مواكسة ولا معاودة فيجعلها مؤونة لسنته ».

وهو يدافع عن الحاكم بأمر الله أبلغ دفاع بمناسبة قصته مع ابن الهيثم ، فقد صوره لنا المؤرخون بأنه كان شاذا غامضا ، فيقول كان به ميل إلى الحكمة والفلسفة وكانت له رغبة فى تشجيع العلم والعلماء ، أوى كثيرا من أطباء عصره ، وأسس فى القاهرة دار الحكمة وأنشأ فى المقطم مرصدا جعل فيه ابن يونس المصرى ، وأنه عندما بلغه قول ابن الهيثم : « لو كنت بمصر لعملت بنيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الإقليم المصرى » . فاشتاق الحاكم إلى رؤيته ، ولعله أراد أن يستفيد به فيما قال فى أمر النيل ، ولعله أراد أيضا أن يأويه إليه ويشمله بعطفه لكى يستأثر بفخر استظلاله برعايته وانتسابه إليه ، فأرسل إليه مرغبا إياه فى الحضور إلى مصر ، وخرج الحاكم نفسه لاستقباله خارج مدينة القاهرة ، وأكرم وفادته ، وأمر باكرام مثواه ، وأنه لما رحل على رأس بعثة هندسية بأدق المعانى الحديثة لهذه العبارة ، تتبع مجرى النيل من القاهرة إلى جنوبى أسوان يدرسه ويعاينه ، وأنه لما لم يجد الأمر متفقا وفكرته الهندسية التى خطرت له ، عاد إلى القاهرة وهو فى أشد حالات الخجل واعتذر للحاكم » .

ولا مراء فى أن مصطفى نظيف قد أضاف إلى معارفنا بتصحيحه لتاريخنا العلمى ، حين قال بسبق ابن الهيثم لباكون فى ابتداع الطريقة العلمية والأخذ بأسبابها ، فيقول إن هذه الطريقة التى تعد من مبتكرات العصر الحديث هى الطريقة التى لا نتردد فى أن نقول إن ابن الهيثم اتبعها فى بحوثه وكشوفه الضوئية وهذه ناحية من نواحى ابن الهيثم لم يتناول بيانها على ما نعلم أحد ، وهى جديرة بالإشارة والتقدير فابن الهيثم أخذ فى بحوثه بالاستقراء . وأخذ بالقياس ، وعنى بالتمثيل ، وأخذ بهذه العناصر على المنوال المتبع فى البحوث الحديثة وهو فى ذلك لم يسبق فرانسس باكون فحسب بل سما عليه سموا ، وكان أوسع أفقا وأعمق منه تفكيرا .

لقد عرض عالمنا لنظريات الإبصار فى الفلسفة اليونانية من فيثاغورس إلى أمبد قليس ، من أفلاطون إلى أرسطو وأبيقور ثم العصر الاسكندرى من أوقليدس وبطليموس إلى هيرون وتاون ؛ كما عرض آراء الإسلاميين المتقدمين عن ابن الهيثم من أمثال الكندى وقسطا ابن لوقا والرازى ، ويقول ليس من المعروف الآن أن أحدا من الإسلاميين المتقدمين على ابن الهيثم قد أضاف إلى علم الضوء شيئا جديدا ذا قيمة ولم يكن معروفا من قبل . فهم لاشك قد أصلحوا الكتب التى نقلت عن اليونانية وشرحوا

غوامضها وصححوا أغلاط براهينها الهندسية ، ولكن ظل علم الضوء عند المستوى الذى وصل إليه وبقى كذلك حتى تناول ابن الهيثم دراسته ثم عرض آراء ابن الهيثم فى الضوء وقارنه بالآراء السائدة فى عصره ، شرح آراءه فى الأضواء الذاتية والعرضية والمنعكسة والفجر والشفق ونقده لرأى أصحاب الشعاع وألوان الأجسام الكثيفة والأجسام المضيئة بذواتها والتقازيح ، وأن انتقال الضوء لايكون إلا فى زمان معارضا السرعة الآنية للضوء التى قال بها ابن سينا ، وتجاربه لإثبات سرعة الضوء والناحية الميكانيكية من نظرية ابن الهيثم فى الانعكاس والانعطاف والهالة وقوس قزح والكسوف وما إلى ذلك ، كل ذلك عرضه فقيدنا العظيم فى أسلوب أخاذ ، فى عمق ورصانة وأصالة ؛ فى وضوح وجلاء ، فى دقة وأمانة .

ولا يستطيع أن يقدر الجهد الذى بذله عالمنا العظيم فى قراءة هذه المخطوطات وتلك المراجع إلا من كابد هذا العمل نفسه ، وما أظنه ببالغ بعض ما بلغ فقيدنا عن دراسة لأعمال ابن الهيثم ، فهو يعرض آراء أصحاب التعاليم والفلاسفة الطبيعيين والأبيقوريين والأفلاطونيين والفلاسفة الإسلاميين ويناقشها مناقشة موضوعية ، ثم يثبت فى وضوح أن نظرية ابن الهيثم فى الضوء ، جديدة ، مخالفة لآراء هؤلاء جميعا ، ويقول : إن أعظم آثار ابن الهيثم فى الضوء أنه أبطل نظرية قديمة كانت شائعة توارثتها الأجيال من عصر اليونان إلى عصره فى كيفية حدوث الإبصار وهى تتلخص فى أن الإبصار يكون باشعاع أو بحزمة من الأشعة على حسب التعبير الحديث ، تخرج من البصر إلى المبصر وخلاصة رأيه أن هذا الشعاع الذى يخرج من البصر إما أن يكون عاديا أو على حسب تعبيره جسما أولا ، فإن كان جسما ، فنحن إذا نظرنا إلى السماء ورأينا الكواكب ، فقد خرج من البصر جسم ملأ ما بين السماء والأرض ولم ينقص من البصر شىء ، وهذا كما يقول : « محال فى غاية الاستحالة وفى غاية الشناعة » وإن لم يكن جسما فهو لا يحس هو نفسه بالمبصر « لأن الإحساس ليس هو إلا للأجسام ذات الحياة ، والإبصار بالبصر لا به . فهو إنما يؤدى شيئا من المبصر إلى البصر ، وليس هذا الذى يقال إنه يخرج من البصر شيئا محسوسا وإنما هو مظنون » . وعارض أصحاب الشعاع ومن قال بنظرية الورود ، وكان رأيهم غامضا لا يغنى شيئا فى بيان كيفية ورود صورة المبصر إلى البصر ، فكان ابن الهيثم أول من ذهب فى أن للضوء حقيقة ووجودا ذاتيا ، وكان رأيه كفيلا بسد أكبر ثغرة فى النظرية وإزالة أخطر دواعى الخلل فيها .

لقد وجد عالمنا فى ابن الهيثم صورة مطابقة لنفسه كما ذكرنا ، فعكف على دراسة أعماله فى صبر ومصابرة ، أعجب بعيوفه عن الصغائر وزهده فى الترف والمال والسلطان وانكبابه المنقطع النظير على العمل ، فراح يترجم له وينقب عن مخطوطاته وكشوفه ، يجلوها على الناس ، ويعرفنا بهذا التراث

العلمى العربى المجيد ، وأنه ليروى قصة ابن الهيثم مع الأمير الذى دفع له أجر تعليمه فردها قائلا خذ أموالك بأسرها ، فأنت أحوج اليها منى عند عودتك إلى ملكك ومسقط رأسك ، واعلم أنه لا أجرة ولا رشوة ولا هدية فى نشر العلم وإقامة الخير . كما يروى فى اعتزاز قوله، يكفينى قوت يوم فما زاد على ذلك إن أمسكته كنت خازنك، وأن أنفقته كنت قهرمانك ، فاذا اشتغلت بهذين فمن يشتغل بعلمى وأمرى، كما يروى قول سارتون عن ابن الهيثم : إنه أكبر عالم طبيعى مسلم فى جميع العصور والأزمان .

وفى الحق أن جهود عالمنا فى التعريف بالتراث العلمى العربى ، بإنشاء الجمعية المصرية لتاريخ العلم ورياسته لها طيلة حياته وإشرافه على إصدار ستة أعداد من مجلة هذه الجمعية ، وإنشائه للمحاضرات التذكارية لابن الهيثم التى ألقيت أثناء عمله فى كلية الهندسة ، وتضمنها عدد خاص من مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم والمقالات العديدة التى نشرها فى رسالة العلم فى موضوعات تتصل بتاريخ العلم عند العرب ، والمحاضرات التى ألقاها فى العيد الألفى لابن سينا والعيد الألفى لابن الهيثم وفى المؤتمرات العلمية، وأنه لخليق بنا اعترافا بفضل عالمنا ، أن ننشىء كرسيا بأسمه لتاريخ العلم فى كل جامعاتنا، وهو الكرسى الذى سعى لإنشائه منذ مدة طويلة؛ وذلك تخليدا لذكراه فقد كان يأمل رحمات الله عليه أن يعرف شبابنا أمجادنا العلمية ، وأن أمتنا ذات أصالة فى العلوم الطبيعية اعترف بها المنصفون من مؤرخى العلم من الغربيين ، على حين يجهلها شبابنا ، ويظنون أنها مستوردة من الخارج ، ومن أسف أن تعثر إنشاء هذا الكرسى ، بحجة أى الأقسام يتبع ، ثم تبودلت المذكرات والتوصيات بإنشائه بين الجامعات وجامعة الدول العربية ، ثم اكتفى بتدريس مقدمة فى تاريخ العلم فى بعض الكليات لبضع سنين ثم ألغيت إلغاء باعتبارها إحدى المواد القومية التى تقرر إلغاؤها . أليس من الواجب وفاء لراحلنا العمل على إنشاء قسم لتاريخ العلم أسوة بكثير من الجامعات الأوربية خاصة وأنها لا تعطى العناية الكافية للعصر العربى الاسلامى ، وان اعترفت بفضله على العلوم الطبيعية. إنى أقدم هذا الاقتراح إلى المسئولين وهو إنشاء كرسى مصطفى نظيف لتاريخ العلم فى إحدى الجامعات المصرية ولتكن جامعة عين شمس التى عمل وكيلا ومديرا لها وأستاذا بكلية العلوم بها أو فى جامعة القاهرة التى عمل أستاذا بها نحو عشرين عاما .

ويعتبر تأريخه لعلم الطبيعة أو الفيزيقا كما كان يحب أن يسميه أخيرا فى كتابه الذى نشره سنة سبع وعشرين، ويقع فى نحو أربعمائة وخمسين صفحة يعتبر مثالا يحتذى ، فهو يقول: إن الإحاطة بكيفية نشوء العلم ومعرفة الأدوار المختلفة التى مرت بها نظرياته ، والوقوف على مواضع الضعف

فى النظرية الواحدة ، وكيف أدى البحث فى إصلاحها إلى الخروج بها من حال إلى حال، كل ذلك أدعى إلى حسن تصور الآراء والنظريات المختلفة وإلى معرفة قيمتها النسبية وتقديرها تقديرا صحيحا ، كما أن تتبع كيفية نمو العلم وتدرجه ومعرفة ما قام به العلماء من الأعمال التى أحدثت هذا النمو والتدرج ، يوضح بجلاء أن العلم كالكائن الحى ، قابل للنمو والرقى ، ويبعث فى نفس القارئ حب الاقتداء بمشهورى العلماء الذين لهم الفخار فى رفع منار العلم .

ويقول إن من أكبر ما يشوق المبتدئين فى دراسة العلم أن تذكر لهم الحقائق العلمية منسوبة إلى كاشفيها ، ويمزج بذكرها ما يجعل شخصيات هؤلاء الكاشفين مألوفة لديهم ، وأن العناية إلى حد ما بالخطوات المتتابعة التى أدت إلى الكشف عن هذه الحقائق يساعدهم فى فهمها ، ويذكى فيهم حب البحث فى الموضوعات العلمية ، ويحملهم على الاهتمام بمزاولتها ودراستها .

ويضيف أن الغرض الذى يقصده من من الكتاب الإحاطة بأوليات تاريخ علم الطبيعة وسد الحاجة إلى كتاب يقف منه الدارسون على الكشوف الحديثة وما أدت اليه من الآراء والنظريات ، ويقول إن الكتب العربية التى تبحث فى تاريخ علم الطبيعة معدومة بتاتا ، وهى باللغات الأوربية نادرة جدا ، ولا يكاد يجد القارئ كتابا تناول البحث فى تاريخ علم الطبيعة منذ أول نشأته فى العصور القديمة وتدرج بها إلى أحدث الآراء والنظريات فى هذا العصر .

وأنه لتتبع نشأة العلم فى المدنيات القديمة والفلسفة اليونانية وعلاقتها بالعلم ونشوء فكرة العناصر وبقاء المادة فى الفلسفة اليونانية ثم التعاليم الرياضية والفلكية فى فلسفة فيثاغورس وعند أرسطو ونظريته فى حركة الأجسام ، ثم ينتقل إلى الحركة العلمية القديرة وتأسيس علم الهندسة عند أوقليدس وأرشميدس وبحوثه ، ويعرض للمخترعات العلمية فى العصر الاسكندرى ، ثم ينتقل إلى النهضة العلمية فى دولة الإسلام وعن تقدم علم الفلك عند العلماء العرب وفلاسفتهم فى علم الطبيعة ثم فى الميكانيكا ، ويعرض لكتاب ميزان الحكمة والبحوث الميكانيكية التى وردت فيه ثم منجزاتهم فى علم الصوت ومبلغ تقدم علوم الحرارة والمغناطيسية والضوء عند العرب .

ويمضى عالمنا الفذ فى تتبع نمو علم الطبيعة فى عصر النهضة الأوربية، بادئا بأعمال كوبرنيق وكيلر وجاليليو ، ثم هيجنز ونيوتن وكافندش وغيرهم ودورهم فى تكون علوم الميكانيكا والأيدروستاتيكا ثم تورشيلى وباسكال وبويل ثم هولمهولتز ورالى وجاى لوساك ومكسويل وفراداى وآثارهم فى علوم الحرارة والصوت والضوء وهكذا إلى أن يصل إلى أحدث البحوث فى نظرية الكم

والنظرية النسبية لأينشتين وطومسون ورذرفورد والنظرية الإلكترونية – كل ذلك فى أسلوب سهل جذاب ، إنه الوضوح بعينه، هو السهل الممتنع .

أما كتابه البصريات الهندسية والطبيعية الذى نشره سنة ثلاثين ، ويقع فى أكثر من سبعمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير ، فإنه هو الآخر فريد فى بابه، متألق فى أسلوبه ودقته ، وأنه ليتدرج كذلك من مبادئه الأولية إلى المستوى المعتاد لدراسة هذا العلم فى الجامعات ، ويقول إنه يبدأ بهذه الدراسة المستفيضة لعلم الضوء دون فروع علم الطبيعة الأخرى ، لأنه الفرع الذى نمـا وازدهر فى عصر التمدين الإسلامى ، وكان من أعظم مؤسسيه شأنا ورفعة وأثرا، الحسن بن الهيثم، الذى كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر ، ويقول إنه لمن المعرة ألا يجد الباحث كتابا عربيا يرتفع فوق مستوى المبادئ الأولية التى يدرسها طلبة المدارس الثانوية فى علم كانت اللغة العربية لغته حتى عصر النهضة فى أوروبا.

وقد عالج فى هذا الكتاب موضوعات الانعكاس والانكسار ، وما يرتبط بها من المسائل الخاصة بالعدسات وتركيبها وما إليها بالبراهين الهندسية، على اعتبار أن شعاع الضوء فى الوسط المتجانس الأجزاء المتشابه الخواص فى جميع الاتجاهات ، خط مستقيم ، وأنه ينقاد عند الانعكاس والانكسار إلى القوانين الأربعة المعروفة ، ويتكون من هذا الشطر الأول من الكتاب المقصود بالبصريات الهندسية ، وأما شطر البصريات الطبيعية فهو الذى يدور البحث فيه حول موضوع ماهية الضوء وما يتفرع منه أو يرتبط به من الموضوعات ، ثم عرض للحركة الاهتزازية والحركة الموجية والنظرية الموجية ثم يصف العين وآلات الإبصار المألوفة والتشتت والألوان وتعيين الأبعاد البؤرية للمرايا الكرية والزيغ الكرى والزيغ اللونى وقوس قزح وسرعة الضوء ، والمبادىء الأساسية فى النظرية الموجية ثم التداخل والحيود ، والاستقطاب والتحليل الطيفى وقوانين الإشعاع . . . . كل ذلك وغير ذلك ممـا لا يتسع المقام لذكره والإفاضة فيه ، فى لغة سهلة جذابة ، وفى أسلوب عربى سليم ، مع العناية بترجمة وتعريب المصطلحات العلمية .

وكم حدثنى رحمات الله عليه فى أمله فى أن يعيد طبع هذه الكتب ، ليضيف إليها ما استحدث فى العلم من آراء ونظريات وتجارب ، وأنا أعلم أن لديه ما كتبه بخطه فى هذه الموضوعات التى كان يود أن يضيفها ، وكم تمنيت عليه أن يملى على مايشاء من هذه الموضوعات ومن غيرها فى تاريخ العلم ، حتى تنشر ويعمم نفعها للقارئين والدارسين .

ولا مراء فى أن الأستاذ مصطفى نظيف شيخ علماء الطبيعة فى مصر بل وفى العالم العربى، وأنه لرائد من رواد النهضة العلمية العربية فى العصر الحديث ، وقد اختير عضواً بمجمع

اللغة العربية سنة ست وأربعين ، ومنح جائزة الدولة فى الطبيعة سنة سبع وأربعين ، وجائزة الدولة التقديرية سنة ثمان وخمسين ، ووسام الجمهورية سنة خمس وخمسين ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى سنة تسع وخمسين .

وقد ولد عالمنا بمدينة الاسكندرية فى الثانى عشر من يناير سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وألف . وأوفد فى بعثة إلى إنجلترا بعد حصوله على الشهادة الثانوية وكان من الخمسة الأوائل فالتحق بجامعة برستول حيث تخصص فى الطبيعة مادة أساسية والرياضيات مواد ثانوية ، ولما عاد من بعثته سنة أربع عشرة عين بالتعليم الثانوى ثم نقل فى سنة ١٩٢٠ مدرساً لعلم الطبيعة بمدرسة المعلمين العليا حتى سنة ١٩٣٠ ، ثم عمل مفتشاً بوزارة المعارف وناظرا لمدرسة الفنون والصنائع ، ثم اختير أستاذاً مساعداً للطبيعة بمدرسة الهندسة التى صارت بعد ذلك كلية الهندسة بجامعة القاهرة

وفى سنة ١٩٣٤ رشح ليشغل وظيفة الأستاذية بدلا من الأستاذ الأجنبى ، ولكن حال نقله ناظراً لمدرسة أسيوط الثانوية دون تعيينه فى ذلك الوقت ، ثم أعيد الى وظيفته بمدرسة الهندسة ، ولما ضمت المدرسة إلى الجامعة متحولة الى كلية الهندسة ، عين أستاذاً للطبيعة ورئيساً للقسم ، إلى أن اختير وكيلا بجامعة عين شمس سنة خمسين ، وعين مديراً للجامعة سنة أربع وخمسين وظل يشغل المنصب إلى أن طلب إعفاءه فى أكتوبر سنة ست وخمسين ، فعين عضواً بمجلس الجامعة وأستاذاً غير متفرغ للطبيعة بكلية العلوم ، ثم استقال من عمله فى يونيه سنة ثمان وخمسين .

وقد كان عالمنا قطب الرحى فى كثير من الجمعيات والهيئات العلمية ، فهو إلى جانب عضويته بمجمع اللغة العربية ، ومجلس جامعة عين شمس ، عضو مراسل بالمجمع العلمى العراقى ، وعضو بالمجمع العلمى المصرى ، ورئيس سابق له ، وعضو بالأكاديمية المصرية للعلوم ورئيس سابق لها ورئيس الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، ورئيس الاتحاد العلمى المصرى ، ورئيس الاتحاد العلمى العربى ، والشعبة القومية للاتحاد الدولى لعلوم الطبيعة ، وكان عضواً بالمجلس الأعلى للعلوم طيلة مدة قيام هذا المجلس ، وعضواً بلجنة الطاقة الذرية وأول نقيب للمهن العلمية ، وأول من حصل على الجائزة التقديرية فى العلوم .

وكذلك كان الأستاذ نظيف منذ أول عهده من الداعين لتأصيل العلم فى البيئة العربية وإلى تدريس العلوم فى الجامعات باللغة العربية ، وبذل ما استطاع من جهد فى سبيل ذلك سواء كان بوضع الاصطلاحات أو بالتأليف أو بالقيام بتدريس المقررات المتقدمة فى علم الطبيعة باللغة العربية ، كما عنى بالتعريف بأهمية العلم وعلاقته بالمجتمع والتعريف بأهمية تاريخ للعلم وبمآثر العرب

فى العلوم وذلك فى محاضرات ودراسات ألقيت ونشرت فى مناسبات مختلفة ، وقد بلغ نشاطه الإنتاجى الذروة فيما بين منتصف العشرينيات ، حتى منتصف الأربعينيات بإنتاجه ما قدمنا من كتب فى علم الطبيعة وفى البصريات وفى دراسته للحسن بن الهيثم ، ثم فى بحوث ومحاضرات ودراسات ألقيت فى محاضرات عامة أو نشرت مقالات فى مجلات علمية ، ثم شغل بالمؤتمرات العلمية والاتحاد العلمى والأكاديمية واللجان العلمية والجمعيات المختلفة .

وقد أسهم الأستاذ نظيف فى أعمال لجان مجمع اللغة العربية ، ولكنه ركز جهوده بصفة خاصة فى لجنة العلوم الرياضيةوالهندسية والطبيعة وعلم النفس ، وشارك فى وضع مصطلحات الرياضة والطبيعة التى أقرت فى مؤتمرات المجمع منذ اختياره عضوا فيه

كما شارك فى مراجعة معجم المصطلحات العلمية والفنية التى أصدرته القوات المسلحة منذسنين .

ومن دراساته التى عرضت على مؤتمرات المجمع ، بحث عن نقل العلوم إلى اللغة العربية وثان عن العلم التعليمى فى الاصطلاح القديم وآخر عن العلم ودلالة اللفظ فى اصطلاح الفلاسفة الإسلاميين وأقسام العلم عندهم .

أيها السادة

قلت فى صدر هذا الحديث إنى أشفقت على نفسى من القصور عن الوفاء بحق فقيدنا العظيم ، وها أنذا أعتذر إليكم عن هذا القصور ، آملا أن تغفروا لى ذلك ، أسأل الله العلى القدير أن يتغمد فقيدنا العظيم بواسع رحمته وأن يسكنه فسيح جناته ، وأن ينزله منازل الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا ، والسلام .

• • قصيدة الأستاذ عزيز أباظة :

أنبتت مصر العماليقَ الفحولا ... جزعَ الشعر على العلم فـــلا
فهووا عن أفقها إلا قليلا ... فاعلا يلقى ولا يلقى فعولا

أفدح الأرزاء ما مسَّ الأُولى ... عرف الناس لعمرى مصطفى
إن تولَّوا ، لم تجد عنهم بديلا ... راهبًا فى معهد العلم بَتولا

ومصاب العلم فى أعلامه ... غارقًا فى بحثه ملتمسًـــــا
يجعل القول وإن صح عليلا ... لأحاجى الكون بالدرس حلولا

واهبًا للعلم نفسًا حـــــرة ... إن فى بغداد إشراقا خبـــــا
تبذل الجهد وتأبى أن تقولا ... فاسألنْ دجلة عنه والمغولا

واجدًا فى بحثــه لذتــــه ... أمة أمّيّـــة كم نشــطت
خلق الناس طباعا وميولا ... تبعث العلم فروعا وأصولا

صامتا يسمع فى مجمعـــــه ... سائلِ الصحراء كم قاعٍ غدا
فإذا قال فتصويبًا جليلا ... للحضارات مقرًّا ومقيـــلا

يرسل القول وجيزًا محكما ... أسرج الجو أُ ناس أخذوا
إن فى إيجازه سبحًا طويلا ... عن أُناس أسرجوا فيها الخيولا

لم يكن من معشر إن عملوا ... كان للعرب . فهل جدَّ لهم
قرعوا الأجراس أو دقُّوا الطبولا ... أثر فى كل فن لن يزولا

واسع الصدر إذا حاجيتــه ... ما لنا هُنَّا وكنا قمســـــــا
وحَيِيًّا حين تُطريه خجولا ... فارعات . حسبنا الله وكيلا

وجد الهيثم ذهنا صافيـــــا ... هذه الدنيا وقد مالت بنـــــا
كشف الأستار عنه والسدولا ... فى سُراها دفعتنا أن نميــلا

ليت شعرى كم لنا من هيثم ... كل عام تنتحينا نُـــــوَبٌ
بين عينيه وبين النور حيلا ... فى زميل راحل يقفو زميــلا

أيها الباحث عن تاريخنا ... ليت شعرى مَنْ مِنَ الصحب إذا
إن فى تاريخنا مجدا أثيلا ... أطبق الحين وأزمعتُ الرحيلا

أنت ما قلبت فيه واجــد ... قـــائم بينكمو يذكرنى
حكمة توثر أو فنا أصيلا ... حامل فى يومه عبئا ثقيــلا

إن فى قرطبة علما عفـــــا ... لن يرى إلا حياة جَدِبـــــت
ومنارات له أمست طلولا ... ليس فضلا ما احتوت لكن فضولا

إن تكن طالت فما أيأسها
أن تضم العُقْم موصولا طويلا

كملايين الورى ؛ قد طالعت
أول السبل ولم تستطع وصولا

آه لو عاد بىَ العمر إلى
باكرٍ منه ، لغيرتُ الدليلا

وقصدت الطوْد لم أُبدل به
هُضُباً طفت عليها وتلولا

وصبرت الطبع عن أهوائه
وحبست السمع عن قال وقيلا

ومضيْتُ النفس من ضغن وإن
سامنى الناس من السُّوء شكولا

وتكرَّمتُ فلم أدلِف إلى
دَرَج خُضت إليهن الوحولا

وتحنَّفت فكان الطهـــر لى
والهدى زادا ونقلا وشمولا

وترفعت فلم أجعل لمـــــا
أبتغيه غير ذى العرش مسولا

أمنيات كم تمناها الأُولى
أخطأُوا فانفرطوا عنها فلولا

أيها الإنسان لم تؤت من الـ
ـعلم فى أطرافه إلا قليـــلا

هبك طالعت السها فى أوْجِها
وتطوَّلتَ صعودا ونـــزولا

هل تسوم العمر يجرى القَهْقَرى ؟
هل ترد الموت بالحىِّ نزيلا !

هل تُنَقِّى النفس مما ضَمِنتْ
هل تزيل الحقد عنها والغليلا !

هل تقيم العدل فى الدنيا فلا
يلبث الباطل فيها أن يزولا !

هل تقى الضَّعْفى من الأقوى إذا
ضرب الخسف عليهم والكُبولا

أيها الإنسان مازلت وإن
جبت أقطار السماوات ضئيلا

فاعتصم بالله واخشع ؛ إنه
إن يشأْ يَسَّر هذا المستحيلا

وخَفِ الله وسَلْهُ واقتـــربْ
وتَطهَّرْ يعطك الله جزيلا

صحب الدنيا أُناس لم يكن
أمرهم إلا قدوما ورحيـــلا

لم يعش يوما وإن عمَّر من
لم يزده عيشه إلا خمولا

إنمـــا الدنيا كتاب جامع
خالد . من زاد فى المتن فصولا ؟!

لا لعمرى ما توارى عـــــالم إن يُتْمًا فقدُ أمٍّ أو أبِ
طبَّق الأرض اسمه عرضًا وطولا أو إذا سجَّيت خِلاًّ وزميلا
من يكن بالعلم غذَّى معهدًا رَبِّ هذا عبدك اعتزَّتْ به
فنظيف وحده علَّم جيـــلا أمم طبَّقها علما أصيـــلا
يا نظيف العرض والنفس لقد وهفا يصقل فيها جهـــده
حمد الشرق لك الجهد الجليلا وهو ريان قبيلا فقبيـــلا
إن من أجلاك عنا بغتـــــة فاسكب الفضل عليه غَدَقَـا
قادر أن يَهَبَ الصبر الجميلا إنك الرحمنُ ، واقبله قبولا

• • كلمة أسرة الفقيد للأستاذ كمال نظيف :

سيدى الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين
رئيس المجمع
السيد الأستاذ الوزير بدر الدين أبو غازى
السادة العلماء أعضاء المجمع
حضرات السيدات والسادة
السلام عليكم ورحمة الله .

لقد استمعت اليوم إلى كلمتين . . . كان لهما أثر كبير فى نفسى .. كلمة الأستاذ الدكتور عبد الحليم منتصر وكلمة الأستاذ الشاعر عزيز أباظة ، كان حزنى بالغا وأليما فرأيت أنكما مثلى أول من أحس فداحة المصاب ، وكان اشتياقى إليه وإلى ذكراه شديدا فكنتما خير من يذكرنى به .

أيها السادة :

إن مشاركتكم الصادقة لى هونت على وخففت من حزنى لفراقه رحمه الله . وكان عزائى أنه ترك لى ولأمثالى من الأعمال والمبادئ ما ينير لنا الطريق وما نسير على هداه ، وأدعو الله أن يوفقنى فى أن أحذو حذوه فى أفعاله وفى جده وفى حسن بصيرته.

لقد كان رحمه الله يجل اللغة ويحترمها حتى فى مكاتباته وخطاباته العادية ، كما كان يجل النهضة العربية القديمة ويغار عليها فى العلم والأدب . كان دائم الاتصال بكم أهل العلم والأدب من مصر و الأقطار الشقيقة . وأذكر على سبيل المثال الفقيد المرحوم الدكتور قدرى طوقان الذى لبّى نداء ربه

بعده بوقت قصير . فكأنه كان على موعد معه فى السماء .

إن تأبينكم اليوم لوالدى لعمل جليل . وبرهان بين واضح على صدق مشاعركم الطيبة ، إنه تكريم لذكراه ولأسرته ولأصدقائه ولرفاقه الأخيار . لذلك أرجو أن تسمحوا لى بالتقدم إلى حضراتكم جميعا وإلى كل من تفضل بمشاركتى الحزن والأسى لفراقه ، بخالص شكرى وتقديرى .

وإنى أجد نفسى مهما أوتيت من قدر وبلاغة عاجزا عن أن أوفيكم قدركم من تقدير وشكر . جزاكم الله خيرا ، ورحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جناته .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

• • كلمة ختام الجلسة للدكتور طه حسين :

أما الآن وقد استمعنا لما ألقى من أحاديث تزيد حزننا وأسانا على فقيدنا العظيم ، فإننى أؤكد لكم أنه مهما قيل عنه فلن يؤدّى حقه كما ينبغى أن يؤدّى ، وأؤكد لكم أنى كنت — وما زلت — من أشد الناس إجلالا له ، وفخراً به ، وحبا كأعمق ما يكون الحب .

وإنى أشكر الخطباء أجزل الشكر ، وأرجو لأسرة الفقيد العظيم ولنا العزاء ، والصبر الجميل .

اقام المجمع فى الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ٨ من ربيع الأول سنة ١٣٩١ هـ الموافق ٣ من مايو سنة ١٩٧١ م حفل تأبين لفقيده المغفور له الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى ، الذى استأثرت به رحمة الله فى ١٩٧١/٣/٨ . وفيما يلى ما القى فى الحفل من كلمات :

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم الأستاذ :

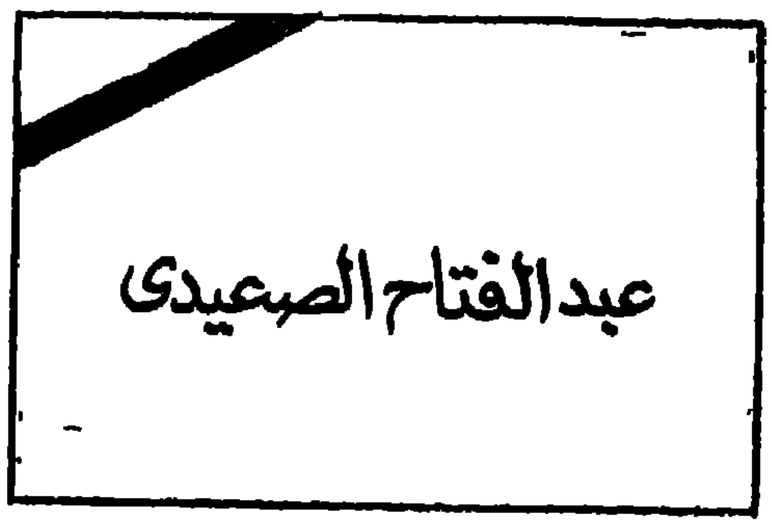

يعز على المجمع أن يجتمع اليوم لتأبين الزميل الكريم المغفور له الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى . ولقد كانت وفاته الفجائية فاجعة هزت أعصابنا جميعا ، وملأت قلوبنا حزنا وأسى ، وقد زاد فى ألمنا أن الفقيد كان فى طريقه إلينا لحضور حفل تأبين المغفور له الأستاذ مصطفى نظيف .

لقد خرج من بيته سليما معافى وهو لا يدرى أن المنية كانت له بالمرصاد . وقد كان الفقيد ضحية من ضحايا الحياة الحضارية التى نحياها اليوم . فللحياة الحضارية ضحايا ، ولن يكون فقيدنا أول ضحية لها ، ولن يكون آخر ضحاياها .

إن حوادث الطريق هى إحدى ظواهر هذه الحياة الحضارية ، ولهذه الحياة ظواهر أخرى فاجعة .

إن الأزمات القلبية والذبحة الصدرية والضغط العالى والواطى وحوادث الطريق كلها ظواهر لتلك الحياة التى نحياها اليوم .

رحم الله الفقيد ، وأسكنه فسيح جناته .

• • كلمة الأستاذ عبد الحميد حسن :

نجتمع اليوم لنلقى نظرة مقرونة بالأسى على ما وعته الذاكرة ، وما انضمت عليه الجوانح ، من جليل الشمائل وحميد المآثر للزميل الكريم والصديق الحميم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى عضو مجمع اللغة العربية ، الذى اختطفته حوادث الزمن وشرور الطريق وهو أقوى ما يكون صحة ، وأعظم ما يكون أملا فى متابعة جهوده اللغوية ، وأكثر اهتماما بالمشاركة فى الأعمال التى رسم مجمع اللغة العربية خطتها لتطوير اللغة العربية والنهوض بها إلى المستوى اللائق بماضيها المجيد .

ولقد كنا نأنس إليه فى لقاءاتنا فى المجمع ، ونرى فى قلبه الرحيم عطفا عميقا ومودة صافية ، ونلمح فى سجاياه التواضع وحب الخير ونحمد له بالتقدير دأبه المتواصل على البحث والتنقيب فى شتى نواحى اللغة العربية ، ودلالات مفرداتها ، وما ينطوى عليه كل ذلك من سعتها ووفائها بمطالب التقدم العلمى والفنى . لقد اختطفته يد الموت وما كان فى مقدور أحد أن يرد عنه عاديات الدهر ، أو أن يدفع ما كتب له فى الأزل ، فهذا قضاء الله ولا راد لقضائه وليس لنا إزاء ما قدره الله إلا الرضا والتسليم.

جرت عادة الدنيا بكل الذى نرى
وليس لها صرف لما تتعـــــود
فصبرا وتسليما لكـــل ملمـــة
إذا لم يكن يوما عن الخطب مبعد

نعم هذه هى طبيعة الحياة وسنة الله فى خلقه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه يرجع الأمر كله ، « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » .

حقا ، خلق الله الموت ليكون للناس واعظا ورادعا وحافزا ، وخلق الحياة وحدد لكل إنسان عمرا محتوما وأجلا معلوما ، وأخفى موعده لكى يتسع الأمل ، وينفسح مجال العمل ، والعمل الصالح هو رصيد الحياة ، وضريبة الصحة ، والعنصر الأساسى لبقاء المجتمع الإنسانى ، والعامل الأول فى عمران الكون ، وقد جعل الله العمل وثيقة ينال بها الإنسان النعيم المقيم والحياة الطيبة الخالدة . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات

يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » (يونس ٩) .

ولقد كان الفقيد الكريم من خير العاملين المخلصين فى جميع مازاوله من أعمال فى التعلم والتعليم وما تقلد من مناصب .

ولد رحمه الله بسمنود فى محافظة الغربية فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٨٩٢ ، ودخل كتاب الأربعين ، وتعلم ما كان يدرس فى هذه الكتاتيب وهو حفظ القرآن الكريم ومبادئ الدين وشئ من الحساب وقواعد الكتابة والخط . وجوّد القرآن بمسجد « العدوى » على إمام القراءات بالجهة وهو الشيخ عزب جانى ، ثم طلب العلم بمسجد « سيدى سلامة» على الشيخ مصطفى البكرى .

ثم غادر سمنود إلى المنصورة فالتحق بمدرسة المعلمين وقضى بها سنتين ، ثم دخل بعد ذلك « دار العلوم » وتخرج سنة ١٩٢٠ .

وبذلك يكون الراحل الكريم قد أتم مرحلة الإعداد العلمى والثقافى ، وهى مرحلة لها أبعادها وعمقها فى مجال اللغة العربية والدين .

وتجزأ بعد ذلك مرحلة العمل والاستثمار وجنى الثمار . ويبدؤها المرحوم مدرسا بمدرسة بنى سويف الابتدائية . وهنا يلتقى بزميل كريم وصديق وفىّ رضىّ الأخلاق دمث الطباع فى تواضع وإخلاص ، وهو الأستاذ حسين يوسف موسى ، وقد ألّف الجد والنشاط والإخلاص بين قلبى الزميلين وأسفر ذلك عن ائتلاف علمى وتجاوب عملى فى البحث اللغوى ؛ فأخرجا كتابا قيّما وهو كتاب « الإفصاح » فى اللغة ، طبعت طبعته الأولى سنة ١٩٢٩ م ، وكان عدد صفحاته ٧٣٦ صفحة ، ثم طبعت طبعته الثانية التى تمت سنة ١٩٦٧ فى حجم كبير يقع فى جزأين بلغت صفحاتهما ١٣٩٤ صفحة .

وهو كتاب عظيم الفائدة فى البحوث اللغوية على غرار المعاجم المعنوية ، مثل المخصص لابن سيده وفقه اللغة للثعالبى ، وغيرهما من كتب اللغة التى تجمع المفردات طبقا لما تنتمى إليه من فصائل المعانى ، مثل الأطعمة والأشربة والملابس والمساكن والرياح والسحب والأشجار والثمار وغير ذلك .

ويعد مرجعا ذا شأن فى وضع المصطلحات العلمية والفنية ؛ ودليلا موجها ومفيدا لمن يجولون فى ميادين اللغة وبطون المعاجم للبحث عن كلمات عربية تقابل المصطلحات الأجنبية ؛ لعلهم يظفرون بما يحقق ما ينشدون من الألفاظ الملائمة ، التى يمكن أن نشق طريقها فى المجال العملى فى يسر وسهولة .

وإلى جانب هذا المعجم اشترك الزميلان فى تأليف ثلاثة أجزاء فى متن اللغة والمحفوظات للمدارس الثانوية .

بعد ذلك استمر الراحل الكريم مدرسا فى مدارس متعددة وهى الناصرية ، فالمعلمين بالمنصورة فالمعلمين بعابدين فمدرسة فؤاد الأول الثانوية .

وفى إحدى مدارس المعلمين الأولية كانت جولته العلمية التى سعدت فيها بلقاه ، وكانت هذه المدارس فى القمة من نظام التعليم القومى المرتكز أولا وبالذات على اللغة العربية والدين ، إلى جانب المواد الثقافية التى يتزود بها المواطن الصالح ، وكذلك المواد التربوية اللازمة لإعداد من يقومون بتعليم الشعب فى أجياله المتعاقبة .

وقد حرص القائمون على إدارة التعليم الأولى إذ ذاك على أن ينشئوا أكبر عدد من هذه المدارس ، لكى تفى بتخريج العدد الكافى من المعلمين ، حتى يمكن تنفيذ التعليم الإجبارى بعد إعداد العدة له ، فأنشأوا خمسا وعشرين مدرسة وكانت منبثة فى أنحاء القطر المصرى من أسوان إلى شواطئ البحر المتوسط ، وقصدوا بتوزيعها على هذا النحو أن يحققوا فكرة التعليم المحلى ، حتى ينشأ الناشئ فى بيئته متعلما ، ثم يعود معلما فيها .

وكانت مناهج هذه المدارس فى اللغة العربية والدين حافلة بالعدد الكبير من الدروس فى مختلف موضوعات هاتين المادتين ، حتى يكون خريجو هذه المدارس أوسع أفقا فى اللغة والدين ، وبذلك يستطيعون أن يضعوا الأساس القوى المتين للقومية الصحيحة .

وفى إحدى مدارس المعلمين الأولية التقيت بالراحل الكريم مدرسا بمدرسة عابدين للمعلمين ، وكانت فى حى السيدة زينب بالقاهرة أمام المدرسة السنية الثانوية للبنات ، وقد تغيرت معالمها وحلت محلها مبان أخرى .

فى هذه المدرسة وفى غيرها من مدارس المعلمين لقيت زملاء أعزاء من بينهم الراحل الكريم ، زملاء لهم علم وفضل وتطلع إلى البحث والدرس والتجديد ، وكان لهم أثر عظيم فى النهضة التعليمية فى اللغة العربية والدين ، تلك النهضة التى نأمل أن تعود سيرتها الأولى فتعود للجيل الحاضر والأجيال القادمة أصالتهما ، وقوتها الخلقية والاجتماعية ، ثم مقدرتهما العلمية .

وقد لمست فى فقيدنا الكريم فى هذه المدرسة حبا للعمل ، ونشاطا جما ، وإخلاصا ، ومثابرة ، وقيامًا بالواجب على أكمل الوجوه ، وهذه هى الصفات الكريمة التى كانت شعارا له فى جميع ما تولاه من أعمال .

وفى سنة ١٩٣٦ م نقل إلى المجمع اللغوى رئيسا للتحرير . وفى سنة ١٩٤٣ م رقى إلى وظيفة المراقب الإدارى بالمجمع ، خلفا للمرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى ، وظل فى هذه الوظيفة حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٥٢ م . ثم اختير عضوا بالمجمع سنة ١٩٦١ ، وظل عاملا فى جد ونشاط وإخلاص ، إلى أن وافاه القدر المحتوم .

وفى إحدى مدارس المعلمين الأولية التقيت بالراحل الكريم مدرسا بمدرسة

وكان نشاطه فى مجمع اللغة العربية واسع النطاق ؛ فقد كان عضوا فى كثير من لجانه وهى :

١ — لجنة الكيمياء والصيدلة .

٢ — لجنة علوم الأحياء والزراعة .

٣ — لجنة الجيولوجيا .

٤ — لجنة المعجم الكبير .

٥ — لجنة المصطلحات الطبية .

وفى الكتاب الذى ألفه الدكتور مهدى علام لمجمع اللغة العربية وعنوانه « المجمعيون » جاء عن الراحل الكريم مايلى :

« وأسند إليه من قبل وزارة الصحة مراجعة دستور الأدوية من الناحية اللغوية ، وهو أول دستور رسمى يظهر باللغة العربية ، وقدنشر فى مجلة المجمع بحثا بعنوان «مصطلحات العلوم فى اللغة العربية ودور المجمع فيها » (جـ ١٣ ص ٢٠٩) .

وفى هذا البحث تعرض لوضع المصطلحات العلمية فى عهد الترجمة فى عصر الدولة العباسية وما مرت به هذه المصطلحات فى دور النقل والترجمة العاجلة ، ثم فى دور التمحيص والتأنى بعد دراسة العلوم الجديدة ، وامتلاك زمامها وفهمها فهما عميقا مستوعبا .

ثم عرض للأدوار الأربعة التى تمر بها المصطلحات فى مجمع اللغة العربية وهى :

لجان المجمع ، وجلساته ، ومؤتمره ، ثم رأى جماهير العلماء والمثقفين فى هذه المصطلحات بعد أن تطبع وتذاع ويطلع عليها الجميع ، وأشار إلى استعداد المجمع لإعادة النظر فى أى مصطلح كان إذا ظهر له وجه الصواب ، ورأى ضرورة التغيير .

وجاء أيضا فى كتاب « المجمعيون » فى معرض اقتراحات الفقيد الكريم مايلى :

« وله اقتراحات فى تيسير وضع المصطلحات العربية المقابلة للمصطلحات الأجنبية ، قدم بعضها لمجمع اللغة العربية والمكتب الدائم للتعريب بمدينة الرباط بالمغرب ، وترمى هذه المقترحات إلى استخراج مصطلحات العلوم من الكتب العربية القديمة ، وتوزيع كلمات المعجمات العربية على حسب معانيها لتكون مصطلحات كل علم بين يدى اللجنة الخاصة بوضع مصطلحاته ، فلا ترجع اللجان إلا إلى ما بين يديها من هذه الألفاظ العربية ، وفى هذا اقتصاد للوقت والجهد ، فوق ما فيه من ربط الحديث بالقديم ، مما ييسر على العلماء المحدثين الاطلاع والاستفادة من علوم الأقدمين » .

هذه بعض جهود الفقيد الكريم فى اللغة وفى نواحى المصطلحات العلمية والفنية ، وهى جهود تتسم بالنشاط الجم ، وتاج هذا النشاط هو كتاب « الإفصاح » ، فإن تأليفه وتمحيص ما احتواه من ألفاظ ، وتنسيقها وجمع متفرقها فى أنواع مؤتلفة ، كل هذا ينطوى على محصول لغوى غزير ، وإلمام له وزنه فى المجال اللغوى .

ولم يكن نشاط الفقيد مقصورا على هذا المجال اللغوى فحسب ، بل كان له رحمه الله إلى جانب ذلك اهتمام بالأدب وميل إلى الشعر تجود به قريحته فى بعض المناسبات ، ممايدل على استعداده للانطلاق فى هذا الميدان ، ولعل اهتمامه باللغة وبالتنقيب فى المعاجم قد استولى على اتجاهاته الفكرية ؛ فلم يدع له فسحة من الوقت لجولات فى مجال الشعر ، ولكن الموهبة كانت ثابتة الجذور فى أعماق عاطفته وخياله ، وكانت جذوتها تشتعل حينما تهيأ المواقف التى تستحث قريحته وتحفز شاعريته .

ومن نماذج شعره قصيدته التى ألقاها فى الدورة الثانية والثلاثين لمؤتمر المجمع الذى عقد فى بغداد سنة ١٩٦٥ م . وأبياتها ٨٢ بيتا ، ومطلعها .

داع دعا لاحتفال بابنة الضاد
نادى فأسمعنا من عُدوة الوادى

صوت ندىّ ببغداد دعا فسعى
قوم من العرب ماينددوهم النادى

وبعد ذلك يفيض فى وصف الطائرة وأجزائها فى أكثر من عشرين بيتا ، ثم يخاطب السفينة لينتقل إلى الحديث عن العراق فيقول :

فدعى السماء وعُوجى اليوم ناجية
نحو العراق ففيها خير مرتادِ

وفى السماء رجوم الشهب قد رصدت
وفى العراق نجوم الرائح الغادى

منازل العرب فى كل البلاد شوى
أنى رحلنا نزلنا بين أنـــداد

ثم يعاوده الحنين إلى الاعتزاز باللغة العربية فيقول :

ليلى بنى العرب فى أوطانهم لغة
نحبها وهواها قد شدا الشادى

وكلهم قيسها والحب يجمعهم
موثقا ضم منقادا لمنقـــاد

هى اللسان لدنياهم ودينهـــم
لحاضر مترف فيهم وللبـــادى

بها تنزلت الآيات واتضحت
مناهج الدين والدنيا لعبّـــاد

هى الرباط الوثيق العقد قد جمعت
أشتاتهم ثم ردوا صولة العـادى

ثم يعود إلى تمجيد الماضى العربى والحث على استعادة أمجاده فيقول :

ياقوم عودوا لماضيكم فإن بـــه
ركازكم فانفضوه نفض نقّـــاد

فيه لكم غُنية عن كل مجتلـــب
يفنى القديم ويعيى همة الشـادى

أحيوا الذى اعترف العلم الجديد به
وصرفوه كما شئتم بإعـــداد

هيا ابذلوا الجهد والأموال طائلة
فى خطة المجد تحقيقا لإسعـــاد

ثم يقول فى آخر القصيدة مشيرا إلى المقترحات التى كان قدمها كتابة :

قدمتُ مقترحا من قبل متضحـا
نثرا وإنى أثنيه بإنشـــــاد
لا يرجع الوقت إن ضيعتموه سدى
والجد والجد فى الدنيا بميعـــاد

* * *

هذه سطور من الصفحة الناصعة لحياة الراحل الكريم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى وهى صفحة حافلة بالخلق الرضىّ والإخلاص الوافى ، والجد المثابر والنشاط المتوقد ، والبحث الدائب فى اللغة وألفاظها ومدلولاتها ومختلف نواحيها .

وقد ظل الراحل الكريم مدافعا عن المصطلحات العربية السليمة وعن الألفاظ التى تحل محل الدخيل وتثبت دعائم الأصيل .

وإنا لنذكر له جهوده فى هذه النواحى بالثناء والتقدير .

ونتجه إلى الله سبحانه أن يجزيه الجزاء الأوفى ، وأن يتغمده برحمته ويسكنه فسيح جناته ، وأن يلهم أسرته الكريمة وأصدقاءه ومحبيه الصبر الجميل .

• • كلمة أسرة الفقيد للدكتور فتحى عبد الفتاح الصعيدى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين

السيد نائب رئيس المجمع — السادة الأعضاء — حضرات السادة .

قضى الله — ولا راد لقضائه — بأن نبتلى بانتقال والدنا إلى الرفيق الأعلى ، فتلك سنته فى خلقه ، وكم كان الامتحان قاسيا ، إذ لم يكن بين مقامه بيننا ، وبين لقاء ربه ، بهذه الصورة الأليمة ، ما يتيح له أن يسمعنا كلمته الأخيرة ، التى كنا فى حاجة إليها .

ولكن ، كان فى مواساة مجمع اللغة الموقر لنا ، ومشاركة سيادة الرئيس والسادة الأعضاء إيانا ، خير عزاء لنا فى مصابنا . ولسنا ندرى ، بأى لسان نشكر هذه اليد الكريمة ، التى أسداها لنا المجمع ، فأثلجت صدورنا ، وضمدت جراحنا .

وإنى لأحس كأن روح والدنا تحوم حولنا الآن ، وترى هذه القلوب العامرة بالحب والتقدير ، فترتاح فى مثواها ، وتدعو لكم بطول العمر وسعادة الحياة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .